الحمد لله الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، والذي أنزل الماء وأنبت المرعى ، له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه الرجعى ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً ندخرها ليومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله وخيرته من خلقه وأمينه على وحيه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه واقتفى أثره إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيراً أما بعد

فهاذا أوان الشروع في تفسير جزء الأحقاف يوم الثلاثاء الموافق (١٩ / ٨ / ١٤٤٣هـ) سائلين المولى التوفيق والرشاد والتسهيل والسداد .

المؤلف سرحان بن غزاي العتيبي

تفسير سورة الأحقاف

مكية وآياتها (٣٥)

﴿ حمٓ ۝١ ﴾ تقدم الكلام على الأحرف المقطعة وأن الراجح أن المراد بها التحدي للكفار بأن هذه الأحرف أحرفٌ عربية فلماذا لا تستطيعون أن تركبوا منها سورة مثل أقصر سورةٍ من القران حينما تحداهم أن يأتوا بسورةٍ فلم يستطيعوا .

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾ القران منزلٌ من عند الله العزيز في سلطانه الحكيم في أفعاله وأوامره ، فالآية تبين أن القران الذي هو كلام رب العالمين أنزله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بواسطة الملك الموكل بالوحي وهو جبريل عليه السلام.

﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ يخبر تعالى أنه ما خلق السماوات والأرض وما بينهما من الكواكب والنجوم والمجرات والشمس والقمر والسحاب والرياح وغيرها إلا لأجل الحق وهو إقامة الدين وعبادة رب العالمين كما قال تعالى﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾ سورة الذاريات وقال الطبري : إلا لإقامة الحقّ والعدل في الخلق .انتهى .

وقال مقاتل : لم أخلقهما باطلاً لغير شيء خلقتهما لأمرٍ هو كائن .انتهى

وقال الطبري في تفسير آية الدخان وهي قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ قال : يقول تعالى ذكره لم نخلق الخلق عبثاً بأن نحدثهم فنحييهم ما أردنا ثم نفنيهم من غير الامتحان بالطاعة والأمر والنهي ، وغير مجازاة المطيع على طاعته والعاصي على معصيته ولكن خلقنا ذلك لنبتلي من أردنا امتحانه من خلقنا بما شئنا من امتحانه من الأمر والنهي ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٩ ﴾ ولكن أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعلمون أن الله خلق ذلك لهم فهم لا يخافون على ما يأتون من سخط الله عقوبةً ، ولا يرجون على خيرٍ إن فعلوه ثواباً لتكذيبهم بالمعاد . انتهى

﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو يوم القيامة أي زمان قدد حددناه لفناء السماوات والأرض وما بينهما وانتهاء اختبار العباد بالعبادة ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ والكفار عما أخبرناهم وخوفناهم به من فناء الدنيا والبعث بعد الموت والمجازاة على الأعمال لاهين منشغلين غير مستعدين .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار المعرضين عن تدبر آيات الكتاب والعمل به ﴿ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ من الآلهة ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أخبروني وبينوا لي هل خلقوا ولو جزءاً بسيطاً من الأرض ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أم لهم نصيبٌ في خلق السماوات فاستحقوا بهذه الشراكة في الخلق أن يُشْرَكُوا معه في العبادة ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ ﴾ أعطوني كتاباً من قبل القران دلكم على هذا الأمر ﴿ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ أو أئتوني ببقيةٍ من علم المتقدمين أي ما يؤثر عنهم من الأقوال ولو لم تكن موجودةً في الكتب فإن الأثارة والأثرة هي الرواية قاله الطبراني . وقال بن خويز منداد هو الخط ذكره القرطبي . يعني ما خطه أهل العلم المتقدمين بأقلامهم . وهذا بعيد لأن ما خط بالقلم ولو في صفيحةٍ واحدة فإنه يطلق عليه كتاب عند العرب ، وحينئذٍ يشمله اللفظ الأول وتكراره من باب العبث ، وهذا ينزه عنه كلام رب العالمين ، إلا أن يكون المراد بالكتاب ما أنزله الله من الكتب على أنبيائه ، والأثارة الكتب الموروثة عن أهل العلم ، فيكون بينهما فرقاً من هذا الوجه . وكان المشركون يعلمون يقيناً أن الله جل وعلا هو الخالق وحده دون من سواه ويقرون بهذا كما قال تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ سورة العنكبوت وقال تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ سورة لقمان وقال تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ سورة الزخرف فكان هذا التحدي المذكور في الآيات من باب تذكيرهم بأن الخالق هو المستحق للعبادة ، ولا خالق سوى الله .

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ لا أضل من العبد الذي يدعوا من دون الله الهةً لا تستجيب لدعائه أبداً ما دامت الدنيا بل هي عن دعاء الداعي لها من الغافلين فلا تدري أن أحداً يدعوها أصلاً فهذا في الدنيا ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ ﴾ في الآخرة ﴿ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً ﴾ يخاصمونهم عند الله ﴿ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ متبرئين منهم .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ وإذا تتلى على هؤلاء الكفار والمشركين ﴿ ءَايَٰتُنَا ﴾ آيات الله وهي القران ﴿ بَيِّنَٰتٍ ﴾ واضحات مبينات للحق والهدى ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ قال هؤلاء الكفار عن القران هذا سحرٌ واضح . قال بن كثير : وقد كَذَبوا وافتروا وضَلّوا وكفروا .انتهى لأنهم موقنين بأنه ليس بسحر وإنما قالوا ذلك كبراً وعناداً وصداً عن القران .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ أي اختلقه النبي صلى الله عليه وسلم من قِبَلِ نفسه . ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ قل لو اختلقته من عندي فلن تستطيعوا أن تمنعوا عني عذاب الله لو كذبت عليه كقوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ سورة الحاقة ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ ولكنه تعالى اعلم بما تتكلمون به عن كتابه ﴿ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ وهو الشهيد بيني وبينكم على ما نقول ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾ فلم يعاجلكم بالعقوبة على ما تتقولون به على كتابه بل أمهلكم لعل منكم من يتوب ويستغفر فيغفر الله له ويرحمه .

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ قل لهم يا محمد لست أول رسولٍ فقد سبقني رسلٌ كثير جاءوا بعبادة الله وحده ونبذ الشرك وأنزل الله عليهم كتباً كما أنزل عليَّ القران ﴿ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ فكل شيءٍ يقع عليَّ وعليكم قد قدَّره الله وكتبه وهو من علم الغيب لا نعلم به إلا حين يقع أو بوحيٍ يأتي به الله قبل ذلك . فلا أدري هل يكتب الله لي النصر أو القتل

أو الإخراج، ولا أدري هل يكتب الله لكم الإيمان أم تبقون على الكفر ، ولا أدري هل يعاجلكم الله بالعقوبة إن بقيتم على الكفر أم يدخرها لكم في الآخرة ونحو ذلك ، وعن أم العلاء وكانت بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمانُ بن مظعون. فاشتكى عثمان عندنا فَمرَّضناه حتى إذا توفي أدْرَجناه في أثوابه ، فدخل علينا رسول الله فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب ، شهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما يدريك أن الله أكرمه؟) فقلت : لا أدري بأبي أنت وأمي! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإني لأرجو له الخير ، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي) قالت : فقلت : والله لا أزكي أحداً بعده أبداً . وأحزنني ذلك ، فنمت فرأيت لعثمان عيناً تجري فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ذاك عمله) رواه البخاري. ولذلك قال بعضهم المراد بالآية الآخرة ، وأنها نسخت بقوله تعالى ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ سورة الفتح فعلم النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ما يفعل الله به في الآخرة . وأنكره بن جرير لأنها قد تواترت النصوص أن المؤمنين في الجنة والنبي صلى الله عليه وسلم إمام المؤمنين ، وأن الكفار في النار ، ولو كان المراد أمر الآخرة لقال الكفار لماذا إذاً تدعونا وأنت لا تدري ما مصيرك ومصيرنا في الآخرة ؟ فكان لهم بذلك حجةً على النبي صلى الله عليه وسلم ، فتبين أن المراد بالآية ما يكون في الدنيا ، وأما الحديث فقد رواه البخاري بلفظٍ آخر وهو (ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به) قال بن كثير : وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ بدليل قولها: فأحزنني ذلك .انتهى فآحاد المؤمنين لا يدرى ما يفعل الله بهم هل يدخلهم الله الجنة ابتداءً أو يعذبهم في النار ثم يخرجهم منها بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم ومن شهد له بالجنة فقد علموا ما يفعل الله بهم في الآخرة .

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ أي ما اتبع إلا ما يوحيه الله إليَّ فاعمل بما يأمرني به واجتنب ما ينهاني عنه . وقال البغوي والطبراني : أي ما أتبع إلا القرآن ، ولا أبتدع من عندي شيئًا .انتهى

﴿ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ وما أنا لكم إلا نذير ينذركم عذاب الله إن كفرتم به ﴿ مُّبِينٌ ۝٩ ﴾ أبين لكم النذارة فأوضح لكم ما يجب عليكم من حق الله فتعملوا به فتنجو من النار.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين أرءيتم إن كان هذا القران وحيٌ من عند الله أنزله عليَّ وكفرتم بالوحي المنزل فما تظنون أن الله فاعلٌ بكم وقد كفرتم بكتابه ونبيه ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ ﴾ اختلفوا في هذا الشاهد من بني إسرائيل فقال ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد: هو عبد الله بن سلام . وذلك لما جاء في البخاري وغيره أن عبد الله بن سلام أسلم وقال يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ إِنْ عَلِمُوا بِإِسْلاَمِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بَهَتُونِي عِنْدَكَ فَجَاءَتِ الْيَهُودُ وَدَخَلَ عَبْدُ اللهِ الْبَيْتَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ قَالُوا أَعْلَمُنَا وَابْنُ أَعْلَمِنَا وَأَخْيَرُنَا وَابْنُ أَخْيَرِنَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ قَالُوا أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ فَخَرَجَ عَبْدُ اللهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ فَقَالُوا شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا وَوَقَعُوا فِيهِ . وعند البخاري قال حدثنا عبد الله بن يوسف قال سمعت مالكاً يحدث عن أبي النضر مولى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ قال : ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأحدٍ يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام قال وفيه نزلت هذه الآية ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ قال: لا أدري قال مالك الآية أو في الحديث .

وقال مسروق والشعبي : ليس هو ابن سلام فقد أسلم بالمدينة والسورة مكية ، وإنما هو موسى والتوراة مثل محمدٍ والقران فآمن بنو إسرائيل بموسى والتوراة وكفرتم أنتم بمحمدٍ والقران . وعليه يكون الشاهد اسم جنس يعم كل بني إسرائيل . ويمكن أن يكون المراد من آمن منهم بالنبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم وشهد بصدق القران فتكون من للتبعيض لا لبيان الجنس ، وتكون مثله في قوله تعالى ﴿ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾ صلة والمعنى عليه ، أي شهد بعض بني إسرائيل على صدق

الوحي فآمنوا به وكفرتم أنتم . وعلى القول بأنه ابن سلام فيكون معناها شهد بن سلام بمثل ما قال النبي صلى الله عليه وسلم أن القران حق وأنه وحيٌ من عند الله .

وقال بعض المفسرين كالطبراني ومقاتل : أن رجلاً من بني إسرائيل اسمه يامين بن يامين قدم مكة فأسلم وشهد عند المشركين أن النبي صلى الله عليه وسلم حق وما جاء به حق . ولو كانت هذه الرواية صحيحة لكانت فاصلاً في الموضوع لكن إعراض كبار المفسرين عنها يدل على عدم صحتها عندهم ولذلك رجح كثير من المفسرين كابن كثير والسعدي قول مسروق ورجح آخرون أنه عبد الله بن سلام وتردد الطبري والقرطبي في الترجيح بين القولين ولو كانت رواية يامين هذه صحيحة لما أعرضوا عنها بالكلية ولذكروها ولو احتمالاً والعلم عند الله . وقد قال الطبري : والصواب من القول في ذلك عندنا أن الذي قاله مسروق في تأويل ذلك أشبه بظاهر التنزيل لأن قوله ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾ في سياق توبيخ الله تعالى ذكره مشركي قريش واحتجاجاً عليهم لنبيه صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم ، وهذه الآية نظيرة سائر الآيات قبلها ، ولم يجر لأهل الكتاب ولا لليهود قبل ذلك ذكر فتوجه هذه الآية إلى أنها فيهم نزلت ، ولا دلّ على انصراف الكلام عن قصص الذين تقدّم الخبر عنهم معنى غير أن الأخبار قد وردت عن جماعة من أصحاب رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم بأن ذلك عنيَّ به عبد الله بن سلام وعليه أكثر أهل التأويل وهم كانوا أعلم بمعاني القرآن ، والسبب الذي فيه نزل ، وما أريد به .انتهى وقال القرطبي : قال القشيري : ومن قال الشاهد موسى قال السورة مكية ، وأسلم ابن سلام قبل موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعامين ويجوز أن تكون الآية نزلت بالمدينة وتوضع في سورةٍ مكية ، فإن الآية كانت تنزل فيقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضعوها في سورة كذا .انتهى

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ لا يوفق لإصابة الحق القوم الذين ظلموا أنفسهم باستكبارهم عن قبول الحق .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ﴾ هذا من الغرور والعجب بأنفسهم أنهم أعلم بالصواب في الأمور كلها ولذا يقولون لو كان ما جاء به محمد حق لكنا أسبق إليه منكم يا معشر المؤمنين فنحن أهل العلم والدراية والرئاسة . ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ وحيث لم يؤمنوا به ولم يسترشدوا به لدلالتهم على الصراط المستقيم فحتماً سيقولون عنه إنه كذبٌ موروث عن الأولين كما قال تعالى ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ سورة الفرقان

﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ ولماذا تنكرون الوحي وقد أنزل الله من قبله كتاباً على موسى عليه السلام إماماً لبني إسرائيل يقتدون به ورحمةً لهم إذا اتبعوه وساروا على منهاجه . ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ وهذا القران كتاب يصدق ما قبله من الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه إلا أنه باللسان العربي ليفهموه كما قال تعالى﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ من (٤٤) سورة فصلت وإنما أنزل الكتاب ﴿ لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ عذاب الله في الدنيا والآخرة ﴿ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ الذين حسن اعتقادهم وعملهم لله فامنوا وعملوا الصالحات . قال الطبري : وَاخْتَلَفَتِ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَةِ ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ فَقَرَأَ ذَلِكَ عَامَّةُ قُرَّاءِ الْحِجَازِ (لِتُنْذِرَ) بِالتَّاءِ بِمَعْنَى : لِتُنْذِرَ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ ، وَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قُرَّاءِ الْعِرَاقِ بِالْيَاءِ بِمَعْنَى : لِيُنْذِرَ الْكِتَابُ ، وَبِأَيِّ الْقِرَاءَتَيْنِ قَرَأَ ذَلِكَ الْقَارِئُ فَمُصِيبٌ .انتهى

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ نطقوا الشهادة ثم استقاموا على مقتضاها فقاموا بالتوحيد والأعمال الصالحة وتركوا المنكرات ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ مما أمامهم في الدار الآخرة من الأهوال والعذاب فهم آمنون حين يفزع الناس كما قال تعالى ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ سورة النمل وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ سورة الأنعام قال ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ يعني على ما خلفهم من الأهل والذرية . وذلك عند الموت حين

تنزل الملائكة لقبض أرواحهم تطمئنهم الملائكة أن الله غفر لهم وأدخلهم الجنة وأن الله سيحفظ لهم أهلهم وذراريهم في الدنيا كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ سورة فصلت

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ في الدنيا من الأعمال لصالحة .

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾ مصدر أي يحسن لهم إحساناً وهذا أبلغ مما لو ذكر مجرد الفعل فقال ووصينا الإنسان أن يحسن إلى والدية فإن المصدر يدل على التوكيد . قال الطبري: يقول تعالى ذكره : ووصينا ابن آدم بوالديه الحسن في صحبته إياهما أيام حياتهما، والبرّ بهما في حياتهما وبعد مماتهما. واختلفت القرّاء في قراءة قوله (حُسناً) فقرأته عامة قرّاء المدينة والبصرة (حُسناً) بضمّ الحاء على التأويل الذي وصف. وقرأ ذلك عامة قرّاء الكوفة (إحْساناً) بالألف بمعنى: ووصيناه بالإحسان إليهما ، وبأيّ ذلك قرأ القارئ فمصيب ، لتقارب معاني ذلك واستفاضة القراءة بكل واحدة منهما في القرّاء .انتهى ثم نبه تعالى على فضل الوالدة فقال ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ فذكر ما تحملته من مشقة الحمل والوضع . فالكره المشقة قال الطبري : اختلف القرّاء في قراءة قوله﴿ كُرْهًا ﴾ فقرأته عامة قراء المدينة والبصرة (كَرها) بفتح الكاف. وقرأته عامة قرّاء الكوفة ﴿ كُرْهًا ﴾ بضمها. قال : والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان متقاربتا المعنى فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب .انتهى ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ﴾ أي مدة حمله في بطن أمه وفطامه بعد الرضاعة التامة ﴿ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ أي سنتين وستة أشهر فإذا كانت الرضاعة التامة سنتين كما قال تعالى ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ من (٢٣٣) سورة البقرة فتكون مدة الحمل ستة أشهر وهي أقل مدةٍ للحمل الطبيعي . ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾ قال الشعبي : بلوغ الحلم . وقال بن

عباسٍ وقتادة : بلوغ ثلاثٍ وثلاثين سنة ورجحه الطبري . وقال الحسن : بلوغ أربعين سنة . والآية دليل للحسن لأنه لو كان ثمة فرق بين بلوغ الأشد وبلوغ الأربعين سنة لفرق بينهما بثمَّ ولكنه قال ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً ﴾ عطف بعضهما على بعضٍ ليدل على أن بلوغ الأشد هو بلوغ أربعين سنة عندها ﴿ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ﴾ الآية وقد قيل أن تمام اكتمال نمو الإنسان وعقله في الأربعين ، فإن الإنسان ينمو في الطول إلى العشرين ثم ينمو في العرض إلى الأربعين فيتوقف مدةً ثم يعود إلى الضمور في العرض ثم في الطول . ونموه عرضاً يعني في العظام دون الشحوم والعضل فقد تزيد بعد ذلك . وكذلك عقله يتوقف دون معلوماته فقد تزيد بعد ذلك . وعندما بلغ المؤمن الأربعين علم أنه ما بعد التمام إلا النقصان وتذكر ما مضى من سيئاته وما أنعم الله به عليه من نعمه فقال قولاً جميلاً ﴿ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ بالإيمان والطاعة وقد قيل أنها نزلت في أبي بكر الصديق حيث أسلم أبواه جميعاً ولم يجتمع لاحدٍ من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره . وأبوه هو أبو قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم . وأمه هي أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد. وقوله ﴿ أَوۡزِعۡنِيٓ ﴾ أي ألهمني وأرشدني ودلني وهو تفويض أمر الهداية لله رب العالمين ﴿ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ ﴾ فيما بقي من عمري ﴿ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ﴾ اجعلهم صالحين بررة بي في حياتي ليسعد بهم قلبي وبعد مماتي ليدعون لي ﴿ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ ﴾ من سيئاتي فاقبل توبتي . ﴿ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥ ﴾ الخاضعين لك بالتوحيد والطاعة . لعله أراد الدعاء أن يختم له بخير .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ الذين فعلوا هذه الأفعال من بر الوالدين والاستسلام لله بالتوحيد والطاعة والتوبة من السيئات والالتجاء إلى الله يتقبل الله أعمالهم فيثيبهم عليها ويتجاوز عن سيئاتهم فيغفرها لهم ويجعلهم مع أصحاب الجنة ففي هنا بمعنى مع ﴿ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ﴾ نصبت وعد على المصدرية أي وعدهم الله وعد الصدق ﴿ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦ ﴾ به في الدنيا في كتب الله وعلى ألسنة رسله .

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ ولـمَّا بين الله جل وعلا الصنف الصالح من الناس عقَّبه بذكر الصنف الطالح وهو العاق لوالديه المكذب بالبعث على أنهما اجتهدا في صلاحه فسألا الله له الهداية ثم حذراه من مغبة كفره وأن الله وعد من لم يؤمن به النار يوم القيامة ووعده حق ، فكان يقول لهما أتعدانني أن أبعث وقد مضت القرون من قبل أن أولد ولم يبعث منهم أحد ، ما هذا الكلام الذي تقولانه إلا أباطيل اختلقها الأولون .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الصنف من الناس هم ﴿ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ وهو قوله تعالى ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ سورة ص وقوله ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ سورة السجدة ﴿ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ أي مع أمم قد مضت من قبلهم من الثقلين ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ حين لم يؤمنوا فدخلوا النار وحرموا من الجنة .

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ ولكلٍ من الصنفين درجاتٌ في الجنة والنار بحسب أعمالهم فليست درجة النبي مثل درجة ضعيف الإيمان في الجنة وليست درجة فرعون في النار مثل درجة أبي طالب ، وذلك لأن الله جل وعلا يوفي الناس درجاتهم بحسب أعمالهم لا يظلمهم شيئاً . قال البغوي : ولكل واحدٍ من الفريقين المؤمنين والكافرين "درجات" منازل ومراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم ، فيجازيهم عليها. قال ابن زيد في هذه الآية: درج أهل النار تذهب سفلا ودرج أهل الجنة تذهب علوً. قال البغوي : قرأ ابن كثير وأهل البصرة وعاصم ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ ﴾ بالياء ، وقرأ الباقون بالنون . انتهى

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ بين الله تعالى حال الكافرين حين يعرضون على النار فيقال لهم على جهة التوبيخ والتقريع ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ فليس لكم في الآخرة من

طيباتٍ ولا استمتاع كالمؤمنين ، وإنما جزاءكم العذاب الذي تهانون به ، فيكون لكم به الذل والخزي جزاء استكباركم في الأرض بالباطل وخروجكم عن توحيد الله وطاعته . قال البغوي : قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (أأذهبتم) بالاستفهام ويهمز ابن عامر همزتين والآخرون بلا استفهام على الخبر ، وكلاهما فصيحان ، لأن العرب تستفهم بالتوبيخ ، وترك الاستفهام فتقول: أذهبت ففعلت كذا؟.انتهى

﴿ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١ ﴾ واذكر يا محمد لقومك ليعتبروا وقيل لنفسك ليكون سلوةً لك وتثبيتاً ﴿ أَخَا عَادٍ ﴾ وهو هود عليه السلام كان أخوهم في النسب لا في الدين . ﴿ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ ﴾ موضع إقامة قومه والأحقاف في اللغة جمع حقف وهو ما اعوج من الرمل واستطال ولم يبلغ أن يكون جبلاً . وقد اختلفوا في هذا المكان فقيل بالشام والأكثر على أنه باليمن قيل هو بالساحل بين عمان وعدن في مكانٍ يقال له الشحر وقيل هو وادٍ بين مهرة وعمان وقيل هو في حضر موت في وادي مهرة وقيل هو في أرضٍ يقال لها حسمى قال القرطبي : وهي أرضٌ بالبادية فيها جبالٌ شواهق ملس الجوانب لا يكاد القتام يفارقها. قال الطبري : وجائز أن يكون ذلك جبلا بالشأم. وجائز أن يكون وادياً بين عمان وحضرموت. وجائز أن يكون الشحر ، وليس في العلم به أداء فرض ، ولا في الجهل به تضييع واجب وأين كان فصفته ما وصفنا من أنهم كانوا قوماً منازلهم الرمال المستعلية المستطيلة .انتهى

﴿ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ ﴾ وقد مضت الرسل تنذر قومها من قبله ومن بعده وقولهم لقومهم واحد وهو ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ فلا تشركوا معه غيره﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١ ﴾ في الدنيا والآخرة .

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا ﴾ قالوا لهود عليه السلام أجئتنا لتصرفنا عن عبادة الهتنا . وكلمة أَفْكٌ تدل على قلب الشيء وصرفه عن جهته فيقال للكذاب أفاك لأنه قلب الأمر عن حقيقته وصرفه عن جهته الصحيحة إلى جهةٍ باطلة. قال بن فارس : الهمزة والفاء والكاف

أصل واحد يدلُّ على قلب الشيء وصرْفِه عن جِهَته . يقال أُفِكَ الشَّيءُ. وأَفِكَ الرّجُلُ إذا كذَب. والإفك الكذِب. وأفكتُ الرّجُلَ عن الشيء إذا صرفتَه عنه .انتهى.

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾ به من العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ أنك رسولٌ من عند الله.

﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ قال هود ليس أنا الذي يأتي بالعذاب إنما هو الله فإن شاء عذبكم عاجلاً وإن شاء أخركم فعلم العذاب عنده وحده . ﴿ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ ﴾ وإنما أنا رسولٌ أبلغكم ما أرسلني الله به﴿ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ مغبة استعجالكم عذاب الله .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ قيل الضمير في ﴿ رَأَوْهُ ﴾ يعود على السحاب أي فلما رأوا السحاب . وقيل يعود على العذاب أي فلما رأوا العذاب كالسحاب المعترض في السماء مستقبلاً في مسيره أوديتهم فرحوا به وظنوا أنه سحاباً يحمل المطر ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ قال الجوهري: العارض السحاب يعترض في الأفق قال الله ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ﴾ أي ليس كما تظنون أنه سحاباً يحمل المطر بل هو العذاب الذي كنتم تستعجلون مجيئه عليكم ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ ريحاً تحمل عذاباً موجعاً . ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ تهلك وتبيد كل شيءٍ أمرها الله أن تهلكه وتبيده ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ أبادة الناس والدواب والأموال ولم يبق إلا المساكن خاوية . ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ كذلك نعاقب القوم المجرمين بعداوتهم لله ورسله ، وباستهتارهم بعذاب الله . قال بن كثير : أي هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا وخالف أمرنا .انتهى

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّهَا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مُسْتَجْمِعًا ضَاحِكًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ . قَالَتْ : وَكَانَ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ. فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَى النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةَ . قَالَتْ فَقَالَ (يَا عَائِشَةُ مَا يؤمنني أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ ، قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ فَقَالُوا ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾

متفق عليه وعند مسلم عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ كَانَ النبي صلى الله عليه وسلم إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ قَالَ (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ). قَالَتْ : وَإِذَا تَخَيَّلَتِ السَّمَاءُ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَخَرَجَ وَدَخَلَ وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ فَإِذَا مَطَرَتْ سُرِّيَ عَنْهُ فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ. قَالَتْ عَائِشَةُ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ (لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ ﴾ قيل المعنى : ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه . وهو معنى قول بن عباسٍ وقتادة واختيار الطبري والطبراني والبغوي وابن كثير والمبرد من أهل اللغة . وقيل المعنى : ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه . يعني مثله و(إن) زائدة . وهو قول القتبي واختيار السعدي ، وهو بعيد لأن الواقع يخالفه فليست أملاك قريش ولا أجسامهم ولا قوتهم مثل قوة عادٍ وهذا معلومٌ بالتواتر . وأبعد منه من قال هي شرطية وجوابها مضمر محذوف والتقدير : ولقد مكناهم في ما إن مكناكم فيه كان بغيكم أكثر وعنادكم أشد .

قال الشنقيطي في أضواء البيان : لَفْظَةُ (إنْ) فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فِيهَا لِلْمُفَسِّرِينَ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ يَدُلُّ اسْتِقْرَاءُ الْقُرْآنِ عَلَى أَنَّ وَاحِدًا مِنْهَا هُوَ الْحَقُّ ، دُونَ الِاثْنَيْنِ الْآخَرَيْنِ .

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : إنْ شَرْطِيَّةٌ وَجَزَاءُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ وَالتَّقْدِيرُ : إنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ طَغَيْتُمْ وَبَغَيْتُمْ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إنْ زَائِدَةٌ بَعْدَ مَا الْمَوْصُولَةِ حَمْلًا لِـ مَا الْمَوْصُولَةِ عَلَى مَا النَّافِيَةِ ، لِأَنَّ مَا النَّافِيَةَ تُزَادُ بَعْدَهَا لَفْظَةُ إنْ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ . كَقَوْلِ قُتَيْلَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ أَوِ النَّضْرِ الْعَبْدَرِيَّةِ :

أَبْلِغْ بِهَا مَيْتًا بِأَنَّ تَحِيَّةً ... مَا إِنْ نَزِلَّ بِهَا النَّجَائِبَ تُخْفِقُوا

وَقَوْلِ دُرَيْدِ بْنِ الصِّمَّةِ فِي الْخَنْسَاءِ :

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِهِ ... كَالْيَوْمِ طَالِي أَيْنُقٍ جُرْبِ

فَ (إِنْ) زَائِدَةٌ بَعْدَ (مَا) النَّافِيَةِ فِي الْبَيْتَيْنِ ، وَهُوَ كَثِيرٌ ، وَقَدْ حَمَلُوا عَلَى ذَلِكَ (مَا) الْمَوْصُولَةَ فَقَالُوا : تُزَادُ بَعْدَهَا (إِنْ) كَآيَةِ (الْأَحْقَافِ) هَذِهِ . وَأَنْشَدَ لِذَلِكَ الْأَخْفَشُ :

يُرَجِّي الْمَرْءُ مَا إِنْ لَا يَرَاهُ وَتَعْرِضُ دُونَ أَدْنَاهُ الْخُطُوبُ

أَيْ يُرْجِّي الْمَرْءُ الشَّيْءَ الَّذِي لَا يَرَاهُ ، وَإِنْ زَائِدَةٌ ، وَهَذَانِ هُمَا الْوَجْهَانِ اللَّذَانِ لَا تَظْهَرُ صِحَّةُ وَاحِدٍ مِنْهُمَا . لِأَنَّ الْأَوَّلَ مِنْهُمَا فِيهِ حَذْفٌ وَتَقْدِيرٌ . وَالثَّانِي مِنْهُمَا فِيهِ زِيَادَةُ كَلِمَةٍ . وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُصَارُ إِلَيْهِ إِلَّا بِدَلِيلٍ يَجِبُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ .

أَمَّا الْوَجْهُ الثَّالِثُ الَّذِي هُوَ الصَّوَابُ – إِنْ شَاءَ اللَّهُ – فَهُوَ أَنَّ لَفْظَةَ (إِنْ) نَافِيَةٌ بَعْدَ (مَا) الْمَوْصُولَةِ ، أَيْ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الَّذِي مَا مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ مِنَ الْقُوَّةِ فِي الْأَجْسَامِ ، وَكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْعَدَدِ . وَإِنَّمَا قُلْنَا : إِنَّ الْقُرْآنَ يَشْهَدُ لِهَذَا الْقَوْلِ لِكَثْرَةِ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ يُهَدِّدُ كُفَّارَ مَكَّةَ بِأَنَّ الْأُمَمَ الْمَاضِيَةَ كَانَتْ أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَقُوَّةً ، وَأَكْثَرَ مِنْهُمْ عَدَدًا وَأَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ، فَلَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ لِيَخَافُوا مِنْ تَكْذِيبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُهْلِكَهُمُ اللَّهُ بِسَبَبِهِ ، كَمَا أَهْلَكَ الْأُمَمَ الَّتِي هِيَ أَقْوَى مِنْهُمْ كَقَوْلِهِ تعالى فِي (الْمُؤْمِنِ) ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ وَقَوْلُهُ فِيهَا أَيْضًا ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ﴾ وَقَوْلُهُ تعالى فِي (الرُّومِ) ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ الْآيَةَ ٩ وَقَدْ قَدَّمْنَا الْآيَاتِ الْمُوَضِّحَةَ لِهَذَا فِي سُورَةِ (الزُّخْرُفِ) فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تعالى ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾ .انتهى.

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ جعل الله لعادٍ سمعاً يسمعون به الحق ، وأبصاراً يبصرون بها آيات الله من حولهم ، وقلوباً يدركون بها ما ينفعهم ، ولكنهم لم يستغلوها في ذلك ، فلم تنفعهم

إذ جحدوا وأنكروا حجج الله عليهم ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ يا أهل مكة وكانوا يمرون في طريق تجاراتهم في الشام واليمن على قرى عادٍ وثمود وقرى قوم لوط ويرون ما حلَّ بهم . ﴿ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي نوعناها لهم لعلهم يعودون إلى الله ويتركون الشرك والكفر .

﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ﴾ أي فهلا نصرتهم تلك الآلهة التي يتقربون إليها من دون الله ومنعت عنهم عذاب الله حين حلَّ بهم ﴿ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ﴾ بل ضلت عنهم الالهة فلم تأتهم أحوج ما كانوا إليها . ﴿ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ وذلك نتيجة كذبهم وافترائهم حين زعموا أن مع الله الهةً أخرى تشفع لهم وتمنع عنهم عذاب الله .

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ هذه هي قصة جن نصيبين كما يقول المفسرون حين أراد الله لهم الهداية فصرفهم حتى حضروا عند النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القران فقالوا لبعضهم أنصتوا للاستماع فأدخل الله في قلوبهم الإيمان حين سمعوا القران ورجعوا من فورهم إلى قومهم دعاةً إلى الله ﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ كانوا على دين موسى عليه السلام يؤمنون بالتوراة فعلموا أن القران يصدق التوراة وما تقدمه من كتب الله وأنه يهدي من اتبعه إلى الحق وإلى الطريق المستقيم وذكر بن كثير أن الحق هنا أي المعتقد والطريق المستقيم العمل . ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ فنصحوا قومهم أن يستجيبوا لداعي الله وهو النبي صلى الله عليه وسلم ويؤمنوا به فإنهم إن فعلوا ذلك غفر الله لهم ذنوبهم وأجارهم من عذابٍ موجع وهو عذاب النار ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ وأخبروهم أن من لا يستجيب للنبي

صلى الله عليه وسلم ولا يؤمن بما جاء به فلن يعجز الله في الأرض بل الله عليه قادر إن شاء أن يعاجله بالعقوبة في الدنيا أو يدخرها له في الآخرة ، وليس له أنصارٌ يمنعونه من الله ، أولئك الذين لا يؤمنون بالنبي صلى الله عليه وسلم في انحرافٍ واضح عن الحق وعن الطريق المستقيم.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ رؤيا تفكر واعتبار ﴿ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ على عظم خلقهن ﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ ولم يصيبه العي وهو الضعف والعجز والتعب ﴿ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ هل يقدر على خلق السماوات والأرض ثم يعجز عن ما هو دون ذلك وهو إحياء الموتى ﴿ بَلَىٰ ﴾ سيحييهم للبعث والحساب ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ لا يعجزه شيء.

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ﴾ الذي كنتم به تكذبون ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ جزاء كفركم وتكذيبكم للرسل .

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ قال بن كثير : أي على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوالٍ وأشهرها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد صلى الله عليه وسلم، قد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سُورَتَيِ "الأحزاب" و "الشورى"، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرّسُل وتكون (مِنَ) في قوله ﴿ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ لبيان الجنس .انتهى ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ بالعذاب فهو قريب ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من البعث والعذاب . ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ تقالوها لما عاينوا أهوال القيامة . ﴿ بَلَاغٌ ﴾ قال ابن جرير : فيه وجهان: أحدهما أن يكون معناه: لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار ذلك لبث بلاغ ، بمعنى: ذلك بلاغ لهم في الدنيا إلى أجلهم ثم حذفت ذلك لبث وهي مرادة في الكلام اكتفاءً بدلالة ما ذكر من الكلام عليها. والآخر: أن يكون معناه: هذا القرآن والتذكير بلاغ لهم وكفاية ، إن فكَّروا واعتبروا فتذكروا. انتهى قال القاسمي بعد ذكره لقول الطبري : وأشار المهايمي إلى معنىً آخر فقال : ليس من حق الرسل

الاستعجال ، بل حقهم بلاغ .انتهى ﴿ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ فهل يكون الهلاك إلا للقوم الخارجين عن طاعة الله وتوحيده .

من دروس سورة الأحقاق

أولاً /في قوله تعالى﴿ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ دليل على أن العبادة والدين لا تكون بالظنون ولا بالتشهي وإنما هي موقوفة على ما جاء من عند الله وما صح عن أنبيائه .

ثانياً / في قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ ﴾ دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب ولا يدري ما يفعل الله به في الدنيا .

ثالثاً / في قوله تعالى ﴿ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ ﴾ يذكر الله تعالى قصص الأنبياء تثبيتاً لفؤاد النبي صلى الله عليه وسلم وأنه قد تقدمه رسلٌ فَكُذِبوا فنصرهم الله وأهلك أعدائهم . وفيه أيضاً تحذير للكافرين أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك .

رابعاً / في قوله تعالى ﴿ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ دليل على أن الله جل وعلا منح الإنسان هذه الأدوات وهي السمع والبصر والفؤاد ليستفيد منها في معرفة الحق ، فإذا قام بها المقام الصحيح في البحث عن الحق ، نفعته بإذن الله ، ودلته على طريق الهدى ، وإذا عارضها بالجحود استكبارا وعنادا فلن تنفعه .

خامساً / في قوله تعالى ﴿ وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ دليل على أن الله جل وعلا إذا أراد بعبدٍ خيراً صرفه إلى مكان الحق فسمَّعه إياه وجعل قلبه واعياً له فقبله وآمن به . وهؤلاء الجن كانوا عكس أولئك المكذبين الذين آتاهم الله السمع والأبصار والأفئدة وسمَّعهم الحق فلم يقبلوه .

تفسير سورة محمد

مدنية وآياتها (٣٨)

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الذين كفروا بالله ورسله وصدوا الناس عن الإيمان بالله ورسله ﴿ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ ﴾ أبطلها وأذهبها كما قال تعالى ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٨ ﴾ سورة إبراهيم وقوله ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣ ﴾ سورة الفرقان

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أي القران ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ﴾ محا عنهم ذنوبهم وأصلح حالهم وشأنهم قال بن كثير : قال ابن عباس: أي أمرهم. وقال مجاهد: شأنهم. وقال قتادة وابن زيد: حالهم. والكل متقارب .انتهى

ثم بين سبب اختلاف جزاءهم فقال ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ فلا يساوى بين من يتبع الحق وبين من يتبع الباطل ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣ ﴾ أي يبين لهم حالهم يوم القيامة يعني حتى لا يكون لهم على الله حجة .

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ في المعركة ﴿ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ يعني قطعها بالسيوف ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أكثرتم فيهم القتل والجراح ﴿ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾ بالأسر ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ أن تمنوا عليهم فتطلقوهم بلا عوض وإما أن تفادوهم بعوض ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ أي أثقالها أي حتى يلقوا السلاح ويستسلموا وفي الآية تقديمٌ وتأخير أي حتى تضع الحرب أوزارها فشدوا الوثاق . لأنه لا يكون الأسر إلا بعد أن يلقوا السلاح ويستسلموا . وقيل أن معنى ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ أي حين تنتهي الحروب ولا يبقى إلا الإسلام وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير والحسن والكلبي والفراء والكسائي. كما قال القرطبي ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾

فأهلكهم دون أن يكتب عليكم أيها المؤمنون قتالهم ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ يختبر الصابرين الذين يضحون بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾ لن تذهب هدراً بل سيجازيهم الله عليها خير الجزاء ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ ﴾ سيوفقهم ويصلح شأنهم في معادهم . ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾ أي عرَّفهم منازلهم فيها .

تنبيه : لم يذكر الله جل وعلا في هذه الآية القتل للأسير وإنما خيَّرَ فيه بين أمرين المن أو الفداء ولكن ثبت في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل بعض الأسرى كعقبة بن معيط والنضر بن الحارث ولذلك اختلف العلماء في هذه الآية على أقوال :

القول الأول / أنها منسوخة بقوله تعالى ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ من (٥) سورة التوبة ومعلومٌ أن سورة التوبة من آخر ما نزل من القران وقد رواه العوفي عن بن عباس وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك والسدي وابن جريج وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة. أنه يجب أن يقتل الأسير المشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن يؤخذ منه الجزية.

القول الثاني / أنها ناسخة للقتل فلا يجوز قتل الأسير وهو قول عطاء والحسن . وقيل أنهما يكرهان ولا يحرمان . والقول بالكراهة مرويٌ عن سعيد بن جبير أيضاً .

القول الثالث / أنها محكمة والخيار للإمام في الأسرى إن شاء قتل وإن شاء منَّ وإن شاء فادى كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم فإنه قتل عقبة بن معيط ومنَّ على ثمامة بن أثال وفادى أسارى بدر ولا يصار إلى الترجيح إلا عند تعذر الجمع والجمع بينها وبين آية التوبة ممكن بأن آية التوبة حال القتال دون حالة الأسر . وهذا قول بن عمر ورواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وهو قول سعيد بن جبير وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد والثوري والأوزاعي وأبي ثور وأبي عبيد وغيرهم وحكاه الطحاوي مذهباً عن أبي حنيفة والمشهور عنه أن لا منَّ ولا فداء إلا أن محمداً وأبا يوسف يريان جواز أن يفادي به الأسير المسلم دون الفداء بالمال .

ولا شك أن القول الثالث هو الراجح لأن الجمع بين الأدلة أولى من اطراح بعضها وهو قول أكثر أهل العلم وليس في الآية نفي القتل بل قد تقدم الأمر بالقتل في قوله ﴿ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ فاكتفى به عن ذكره هاهنا والله أعلم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾ إن تنصروا دين الله بالقول والعمل ينصركم الله على أعدائكم ﴿ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ ﴾ فلا تنهزموا أمامهم .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ ﴾ مصدر أي أتعسهم الله تعساً . أي شقاءً وخزياً ومكروهاً وسوءا . والتَّعْسُ في اللغة : الانحطاطُ والعثُورُ يقال : تَعَسَ يَتْعَسُ إذا انْكَبَّ وعَثَرَ . قال البغوي : قال ابن عباس: بُعْدًا لهم. وقال أبو العالية: سقوطًا لهم. وقال الضحاك: خيبةً لهم. وقال ابن زيد: شقاءً لهم. قال الفراء: هو نصب على المصدر على سبيل الدعاء. وقيل: في الدنيا العثرة ، وفي الآخرة التردي في النار .انتهى.﴿ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ﴾ أبطلها .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩ ﴾ وذلك بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله من الوحي فأبطل الله أعمالهم .

﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ مساكنهم وأموالهم وأهلكهم ﴿ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ۝١٠ ﴾ تهديد للكافرين بالنبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم أن يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء من العذاب .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ناصرهم ومؤيدهم ﴿ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝١١ ﴾ لا ناصر لهم .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ في الدار الآخرة ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ ﴾ في الدنيا ﴿ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ ﴾ لا تعقل ما يراد بها فقد

تقدم لتذبح ويؤتى لها بالطعام فتأكل منه فكذلك الكفار كالأنعام بل هم أضل ، يتمتعون ويأكلون متنعمين في الدنيا ولكن في الآخرة ﴿ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ ﴾ أي مسكن ومقر إقامة.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴿١٣﴾ ﴾ تهديد لأهل مكة وتثبيتٌ للنبي صلى الله عليه وسلم أي كم من القرى المكذبة التي كان أهلها أشد قوةً في أنفسهم وعددهم وعتادهم من أهل مكة أهلكهم الله فلم يجدوا لهم ناصراً يمنعهم من عذاب الله حين جاءهم أي فليحذر أهل مكة أن يصيبهم مثل ما أصابهم .

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٤﴾ ﴾ أفمن كان على دلائل وبراهين من معرفة ربه وهو النبي صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه خير أم من زَيَّنَ لهم الشيطان قبيح أعمالهم وأتبعوا ما تمليه عليهم أهوائهم ورغباتهم من غير بينة . والاستفهام استنكاري. أي لا سواء .

﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ ﴾ صفة الجنة التي وعد الله عباده الذين اتقوه في الدنيا بفعل الأوامر واجتناب النواهي ﴿ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ ﴾ لم ينتن ولم يتغير من طول المكث ﴿ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ ﴾ بحموضةٍ ولا بغيرها ، لم يحلب من بهيمة وإنما خلقه الله جارياً في الأنهار ﴿ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ يتلذذون بشربه ليس فيه رائحة كريهة ولا ذهاب عقلٍ كخمر الدنيا ﴿ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى ﴾ ليس فيه شوائب ﴿ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ يأكلون منها ﴿ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾ وسترٌ من ربهم لسابق ذنوبهم في الدنيا فلا يعلم بها أحدٌ ، ويمكن أن يكون المراد ما يعملونه من ذنبٍ في الجنة فإن الله يغفره لهم فقد أحلَّ عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم فيها أبدا. ففي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك . فيقول : هل رضيتم؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب ، وأي شيءٍ أفضل من ذلك . فيقول : أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً) متفق عليه

﴿كَمَنْ هُوَ﴾ هل يساوى هؤلاء الذين يتنعمون في الجنة بمن هو ﴿خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾ لا يخرج منها ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ ويسقون ماءً يغلي من الحرارة فيقطع أمعائهم .

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ قال قتادة : هؤلاء المنافقون ، دخل رجلان : رجلٌ ممن عقل عن الله وانتفع بما سمع ، ورجلٌ لم يعقل عن الله فلم ينتفع بما سمع . ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ بإذنه لا بقلبه لأنهم لا يريدون سماع الحق وإنما حضروا نفاقاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم الصحابة ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ ماذا قال قبل قليل . ولعلهم كانوا يريدون أن يحاجوا الصحابة في قوله ، أو قالوا ذلك على جهة الاستهزاء. أي أنا لم نلتفت إلى قوله. وأما من كان ضعيف الفهم وأراد أن يسترشد فليس داخلاً في ذلك قطعاً . ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ختم عليها فلم تعي الحق ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ شهواتهم ورغباتهم .

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ قيل هؤلاء هم من آمن من أهل الكتاب كانوا على هديً باتباعهم موسى وعيسى عليهما السلام فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم امنوا به فزادهم الله هدى ودلالةً على الحق والرشاد وجعلهم من المتقين . وقيل هؤلاء المؤمنون بالنبي صلى الله عليه وسلم لما بُعِثَ النبي صلى الله عليه وسلم امنوا به فلما سمعوا المزيد من العلم في القران والسنة زادهم الله بذلك هدى وتقوى كما قال تعالى﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ سورة التوبة قال القرطبي﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي ألهمهم إياها. وقيل فيه خمسة أوجه أحدها: آتاهم الخشية قاله الربيع. الثاني: ثواب تقواهم في الآخرة ، قاله السدي. الثالث: وفقهم للعمل الذي فرض عليهم قاله مقاتل. الرابع: بين لهم ما يتقون قاله ابن زياد والسدي أيضا. الخامس: أنه

ترك المنسوخ والعمل بالناسخ قاله عطية. الماوردي: ويحتمل سادسا أنه ترك الرخص والأخذ بالعزائم. انتهى

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ فهل يرقبون بتوبتهم وتذكرهم القيامة أن تأتيهم فجأة ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ علاماتها الدالة على قرب وقوعها ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾ فمن أين لهم حين قيامها التذكر والتوبة وقد فات وقتها وجاء وقت الحساب والجزاء .

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ أي اعرف معناها واعمل بمقتضاها ، فمعناها : لا معبود بحقٍ إلا الله . ومقتضاها : ترك عبادة ما سوى الله والقيام بالأعمال الصالحة وترك المنكرات فإن الإله الحق لابد أن يطاع وتترك معصيته ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ إذا وقعت في ذنبٍ أو قصرت في طاعة ، وإن قيل كيف يؤمر بالاستغفار وهو معصومٌ من الذنب فالجواب أنه معصومٌ من الكبائر لا الصغائر أو أنه أمر بالاستغفار ليقتدي به المؤمنون . ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي واستغفر أيها النبي للمؤمنين والمؤمنات فإن دعاءك أقرب أن يجاب من دعائهم لتقواك وعظيم منزلتك عند الله ، وهذا في حياته كان الصحابة يطلبون منه أن يدعو لهم ويستغفر لهم ، وأما بعد موته فلا يطلب منه ذلك عند قبره فإنه من الاستشفاع بالميت وهو شرك ولذلك لم يفعله الصحابة حتى لما أصابهم الجدب في زمن عمر طلبوا من العباس أن يدعوا لهم لأنه عم النبي صلى الله عليه وسلم ولو كان طلب الدعاء من الميت جائزاً لما عدلوا عن النبي صلى الله عليه وسلم إلى غيره . ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ قال القرطبي : فيه خمسة أقوال: أحدها : يعلم أعمالكم في تصرفكم وإقامتكم. الثاني﴿ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ في أعمالكم نهارا . ﴿ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ في ليلكم نياما. وقيل﴿ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ في الدنيا.﴿ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ في الدنيا والآخرة قاله ابن عباس والضحاك. وقال عكرمة﴿ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات. ﴿ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ مقامكم في الأرض. وقال ابن كيسان﴿ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ من ظهرٍ إلى بطنٍ إلى الدنيا.﴿ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ في القبور. قلت: والعموم يأتي على هذا كله ، فلا يخفى عليه سبحانه شيء من حركات بني آدم وسكناتهم وكذا جميع خلقه .انتهى

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ تأمرنا بالقتال ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ﴾ لا تقبل النسخ أو سورة فيها أحكام شرعية ﴿ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ﴾ أي الأمر بالقتال ﴿ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ مرض الشك والنفاق ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ من شدة الخوف والجبن لا تكاد تطرف أبصارهم كمن هو في سكرات الموت ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ فأفضل لهم حين سماع السورة وما فيها من أحكام أن ينوا الطاعة وأن يقولوا سمعنا وأطعنا بالقلب واللسان. وقال الرازي ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ دعاء كقول القائل فويل لهم ويحتمل أن يكون هو خبر لمبتدأ محذوف سبق ذكره وهو الموت كأن الله تعالى لما قال ﴿ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ قال فالموت أولى لهم ، لأن الحياة التي لا في طاعة الله ورسوله الموت خيرٌ منها ، وقال الواحدي يجوز أن يكون المعنى فأولى لهم طاعة أي الطاعة أولى لهم .انتهى ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ ﴾ فإذا جد الأمر وحضر القتال ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ بما قالوا من السمع والطاعة ، أو بما قالوا من إرادتهم إنزال سورةٍ تأمر بالجهاد في سبيل الله ، أو في إيمانهم وما يقتضيه من تنفيذ أوامر الله . ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾ في دنياهم وأخراهم . قال الطبراني ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾ أي صدَّقوا اللهَ في إيمانِهم وجِهَادِهم لكان خيراً لَهم من المعصيةِ والكراهة والمخالفةِ .انتهى .

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ عن الجهاد في سبيل الله ﴿ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بارتكاب المنكرات ﴿ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ فلا تصلوها ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ طردهم وأبعدهم عن رحمته ﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ عن سماع الحق ﴿ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ عن رؤية الحق فعاشوا في ضلال وماتوا في ضلال عقوبةً من الله لهم لنفاقهم وتركهم للفرائض وإفسادهم في الأرض وتقطيعهم للأرحام .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون القران ليستفيدوا من حكمه وأحكامه ومواعظه أم أن قلوبهم مغلقةٌ بالأقفال فلا يصل إليها الهدى .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمُ ﴾ رجعوا إلى الكفر بعد الإيمان ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ﴾ من بعد ما تبين لهم الحق بدلائله ﴿ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ الشيطان هو الذي زين لهم الردة . ﴿ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ أي جعلهم يطيلون الأمل . وقيل الشيطان سول لهم والله أملى لهم أي أمهلهم فلم يعاجلهم بالعقوبة . وقيل أن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب كفروا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ما عرفوا نعته عندهم ، وهو قول قتادة وابن جريج . وقال ابن عباس والضحاك والسدي: هم المنافقون قعدوا عن القتال بعد ما علموه في القرآن. ذكر ذلك القرطبي في تفسيره ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي المنافقين ﴿ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ ﴾ أي أهل الكتاب ويجوز العكس ، وقيل المراد أن أهل الكتاب والمنافقين قالوا للمشركين ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ﴾ أي في مخالفة محمد ، والتظاهر على عداوته ، والقعود عن الجهاد معه ، وتوهين أمره . ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي ما يسرون به لبعض واطلع الله نبيه على ذلك .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾ فكيف هي حالهم إذا حضرتهم الوفاة وحضر الملائكة لقبض أرواحهم وجعل الملائكة يضربون وجوه هؤلاء المرتدين ويضربون أدبارهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ ﴾ أي ما يوجب سخطه من الكفر وسيء العمل ﴿ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾ أي ما يرضيه من الإيمان وصالح العمل ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ أبطلها . أي ما كان من أعمالهم الصالحة قبل الردة بطلت بالردة ، فكما أن الإسلام يبطل ما تقدمه من عملٍ سيء ، فكذلك الردة تبطل ما تقدمها من عملٍ صالح.

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾ أي ما يضمرونه من الضغائن في قلوبهم لله ورسوله . والضغينة الحقد والحسد والغش والبغضاء .

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ﴾ أي بعلاماتٍ تدل عليهم على أجسادهم . ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ وستعرفهم بلحن القول أي ستعرفهم من محتوى كلامهم وصفة

نطقهم بالكلام قال أنس: فلم يخف منافق بعد هذه الآية على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾ ﴾ أيها الناس جميعاً .

﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ ﴾ ولنختبرنكم أيها الناس ﴿ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ حتى نميز الصادق في إيمانه وجهاده وصبره من الكاذب ، والمراد بالعلم الموجب للجزاء وإلا فإن الله يعلم ما كان وما يكون وما هو كائن ولكنه لا يجازي الناس بمقتضى علمه السابق بعملهم ، وإنما يجازيهم بما عملوه بمقتضى إرادتهم وذلك من تمام عدله بهم . ﴿ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾ ﴾ أي نبلوكم حتى نظهر أحوالكم وسرائركم ، وقد كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لا تبتلينا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ أي عادوه وآذوه ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ ﴾ من بعد ما عرفوا الحق ﴿ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا ﴾ لأنه غنيٌ عنهم بل الضرر يعود عليهم أنفسهم ﴿ وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ﴾ وسيبطل الله أعمالهم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ ﴾ بالردة عن الإسلام .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ ﴾ تحذير من الموت على الكفر لأنه يمنع مغفرة الله .

﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ ﴾ فلا تضعفوا وتذلوا لأعداء الله وتدعوهم إلى المسالمة ﴿ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ ﴾ وأنتم الذين لكم الغلبة والعلو عليهم . قال الطبري : أنتم القاهرون لهم والعالون عليهم . وقيل : أنتم أولى بالله منهم . وقيل : أنتم الغالبون آخر الأمر وإن غلبوكم في بعض الأوقات .انتهى ﴿ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ ﴾ بتأييده ونصره ﴿ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ ﴾ ولن ينتقصكم من ثواب أعمالكم . قال بن عباس : لن يظلمكم أجور أعمالكم .وهو قول بن زيد وقتادة والضحاك . والأول قول مجاهد ، وقال مقاتل : ولن يبطلكم أعمالكم . والمعنى واحد .

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ تحذير من الافتتان بالحياة الدنيا وزخارفها وأنها مجرد لعبٍ ولهو قال الطبراني : اللَّعِبُ : العملُ الذي لا تتعلَّقُ به فائدةٌ ، واللَّهْوُ : هو الفرحُ الذي لا يبقَى .انتهى ﴿ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ أي أجر عملكم فيثيبكم الجنة ﴿ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾ ولا يطلب منكم مالاً مقابل هذا الثواب وذلك لأنه ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكْكُمْ ﴾ يشدد عليكم في المسألة ﴿ تَبْخَلُواْ ﴾ بإخراجها ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾ أي أحقادكم بسبب البخل بالمال .

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ في وجوه البر وقيل المراد الزكاة المفروضة ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾ ولا ينفق ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ لأنه يفوته الأجر ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ ﴾ عنكم ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ إليه ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ ﴾ عن طاعة الله ورسوله ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ بل يكونوا مستمسكين بأمر الله ورسوله.

من دروس سورة محمد

أولاً / في قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾ دليل على أن كره شيءٍ مما أنزل الله كفرٌ محبطٌ للعمل .

ثانياً / في قوله تعالى ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ دليل على وجوب معرفة معنى لا إله إلا الله حتى يقولها وهو عالمٌ بما تقتضيه هذه الكلمة وأما مجرد قولها بلا نية أو بلا علمٍ بمقتضاها أو بلا عمل بمضمونها فلا ينفع ما دام قادراً على معرفة معناها لوجود العلم في الناس ، وأما في آخر الزمان مع ذهاب العلم وعدم مقدرتهم على معرفة معناها فقد تنفعهم كما صرح بذلك حذيفة رضي الله عنه والعلم عند الله تعالى .

ثالثاً / في قوله تعالى ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ ﴾ وعيدٌ شديد على قطيعة الرحم وأنها من كبائر الذنوب .

رابعاً / في قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِ ﴾ دليل على أن المنافقين يناصرون الكافرين على المؤمنين على مر العصور والأزمان فينبغي الحذر منهم .

خامساً / في قوله تعالى ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾ ﴾ دليل على أن الدنيا دار ابتلاءٍ وامتحان يبتلى فيها الصالح والطالح حتى يميز الله الخبيث من الطيب ويظهر صدق إيمان المؤمن ، ويظهر المنافق على حقيقته .

تفسير سورة الفتح

مدنية وآياتها (٢٩)

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَسِيرُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَسِيرُ مَعَهُ لَيْلاً فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَنْ شَيْءٍ فَلَمْ يُجِبْهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا عُمَرُ نَزَرْتَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ثَلاَثَ مَرَّاتٍ كُلُّ ذَلِكَ لاَ يُجِيبُكَ قَالَ عُمَرُ فَحَرَّكْتُ بَعِيرِي ثمَّ تَقَدَّمْتُ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ وَخَشِيتُ أَنْ يَنْزِلَ فِيَّ قُرْآنٌ فَمَا نَشِبْتُ أَنْ سَمِعْتُ صَارِخًا يَصْرُخُ بِي قَالَ فَقُلْتُ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِيَّ قُرْآنٌ وَجِئْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ (لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾) رواه البخاري وعَنْ قَتَادَةَ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ حَدَّثَهُمْ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مَرْجِعَهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ وَهُمْ يُخَالِطُهُمُ الْحُزْنُ وَالْكَآبَةُ وَقَدْ نَحَرَ الْهَدْىَ بِالْحُدَيْبِيَةِ فَقَالَ (لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَىَّ آيَةٌ هي أَحَبُّ إِلَىَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا) رواه مسلم وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ قَالَ قَرَأَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ سُورَةَ الْفَتْحِ فَرَجَّعَ فِيهَا .متفق عليه وعَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ قَالَ أَتَيْتُ أَبَا وَائِلٍ أَسْأَلُهُ فَقَالَ كُنَّا بِصِفِّينَ فَقَالَ رَجُلٌ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ فَقَالَ عَلِيٌّ نَعَمْ فَقَالَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ اتَّهِمُوا أَنْفُسَكُمْ فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ ، يَعْنِي الصُّلْحَ الَّذِي كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَالْمُشْرِكِينَ – وَلَوْ نَرَى قِتَالاً لَقَاتَلْنَا فَجَاءَ عُمَرُ فَقَالَ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ أَلَيْسَ قَتْلاَنَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلاَهُمْ فِي النَّارِ قَالَ بَلَى قَالَ فَفِيمَ أُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللَّهُ بَيْنَنَا فَقَالَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا فَرَجَعَ مُتَغَيِّظًا فَلَمْ يَصْبِرْ حَتَّى جَاءَ أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ قَالَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَلَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ أَبَدًا فَنَزَلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ. رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري ولفظ مسلم قَالَ فَنَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِالْفَتْحِ فَأَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ فَأَقْرَأَهُ إِيَّاهُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَ فَتْحٌ هُوَ قَالَ (نَعَمْ) فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَرَجَعَ.

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾ أي نصرناك نصراً ظاهراً ، وقيل قضينا لك قضاءً بيناً . وأصل الفتح نقيض الإغلاق. ويأتي بمعنى النصر ، ويأتي بمعنى الحكم . قال البغوي: ومعنى الفتح فتح المنغلق ، والصلح مع المشركين بالحديبية كان متعذرًا حتى فتحه الله عز وجل .انتهى ويمكن أن يكون المعنى : كانت أمور الدعوة منغلقةً عليك حتى فتحناها لك فتحاً ظاهراً بعد صلح الحديبية . وقال في لسان العرب : قال الزجاج: جاء في التفسير قضينا لك قضاءً مبيناً أَي حكمنا لك بإظهار دين الإسلام وبالنصر على عدوِّكَ . قال الأَزهري : قال قتادة : أَي قضينا لك قضاءً فيما اختار الله لك من مُهادَنةِ أَهل مكة وموادعتهم عام الحديبية .انتهى

وهذا الفتح هو صلح الحديبية على الصحيح من أقوال المفسرين . قال بن كثير : رويَ عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية . وعن جابر قال: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية. وعن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحًا ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية . قال بن كثير : وجعل ذلك الصلح فتحًا باعتبار ما فيه من المصلحة ، وما آل الأمر إليه . قال : فإنه حصل بسببه خير جزيل وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر وانتشر العلم النافع والإيمان. انتهى وقال البغوي : قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام في قلوبهم أسلم في ثلاث سنين خلق كثير ، وكثر بهم سواد الإسلام .انتهى وقال السعدي : وبسبب ذلك لما أَمِنَ الناس بعضهم بعضاً ، اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عز وجل ، وصار كل مؤمنٍ بأي محلٍ كان من تلك الأقطار يتمكن من ذلك ، وأمكن الحريص على الوقوف على حقيقة الإسلام ، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجا ، فلذلك سماه الله فتحاً ووصفه بأنه فتحٌ مبين أي: ظاهر جلي وذلك لأن المقصود في فتح بلدان المشركين إعزاز دين الله وانتصار المسلمين ، وهذا حصل بذلك الفتح .انتهى

وقال البغوي : اختلفوا في هذا الفتح : روي عن أبي جعفر الرازي عن قتادة عن أنس: أنه فتح مكة . وقال مجاهد: فتح خيبر . والأكثرون على أنه صلح الحديبية. انتهى قلت: الذي في

الصحيح عن أنس أنه صلح الحديبية كما تقدم . وروى القرطبي عن مجاهد أنه قال : هو منحره بالحديبية وحلقه رأسه .انتهى وإذا انتفى أن يكون المراد به فتح مكة كما تقدم عن ابن مسعود وجابر والبراء فانتفائه عن فتح خيبر من باب أولى ، لأن فتح مكة أعظم وأكبر ، لكن هذان الفتحان كانا من نتاج ذلك الفتح ، فهما مصداق ما أخبر به الله جل وعلا أن في صلح الحديبية الفتح المبين ، فإن كان خفي عن بعض الصحابة ماهية الفتح في صلح الحديبية فقد بان لهم بعد فتح مكة وخيبر وإسلام الوفود .

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ اللام للتعليل أي فتحنا لك لكي يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فيجمع لك بين خيري الدنيا والآخرة . قال الطبراني : قال ابنُ الأنباريّ : سَأَلْتُ أبَا عَبَّاسٍ عَنِ اللاَّمِ فِي قَوْلِهِ ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾ فَقَالَ : هُوَ لاَمُ كَيْ ، مَعْنَاهَا : إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيْناً لِكَيْ يَجْتَمِعَ لَكَ مَعَ الْمَغْفِرَةِ تَمَامُ النِّعْمَةِ فِي الْفَتْحِ .انتهى ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ قال القرطبي : قال ابن عباس: في الجنة. وقيل: بالنبوة والحكمة. وقيل: بفتح مكة والطائف وخيبر. وقيل: بخضوع من استكبر وطاعة من تجبر .انتهى ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ ويدلك على الطريق السوي الموصل لرضوان الله وجناته . عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ فَقَالَتْ عَائِشَةُ لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ (أَفَلاَ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا) متفق عليه

﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾ لا ذل بعده .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي الطمأنينة والثبات والرضا بحكم الله . ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ قال بن عباس : تصديقاً مع تصديقهم . وقال الضحاك : يقيناً مع يقينهم. ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ من الإنس والجن والملائكة وغيرهم مما لا يعلمه إلا الله . ومن هذه الجنود إنزال السكينة والتثبيت للمؤمنين ، وإلقاء الرعب والفزع في قلوب الكافرين .

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بكل شيء ﴿ حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ يضع الأمور في مواضعها اللائقة بها .

ولما بشر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بما يفرح قلبه عاد بالبشارة على عباده المؤمنين بما يفرح قلوبهم فقال ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ لا فوز الدنيا وانتصاراتها فمن كَفَّرَ الله سيئاته وأبعده عن النار وأدخله الجنة فذلك هو الفوز الحقيقي كما قال تعالى﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ من (١٨٥) ال عمران

ولما ذكر الله جزاء عباده الصالحين أعقبه بذكر جزاء أعداءه فقال ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ ظنوا أن الله لا ينصر دينه ولا نبيه وأن الدائرة ستكون لهم على المؤمنين فأدار الله الدائرة عليهم وجعل الخذلان في الدنيا من نصيبهم . وأما في الآخرة ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ مرجعاً يرجعون إليه .

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ تحت تدبيره وأمره ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا ﴾ منيعاً قوياً غالباً﴿ حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾ في أمره وتدبيره قال الطبراني : ليس على وجهِ التِّكرار ، لأنَّ الأولَ في أعانةِ المؤمنين وهذا متَّصلٌ بذكرِ المنافقين في الانتقامِ منهم .انتهى يعني في الأول إخبار الله للمؤمنين أنه إن شاء أعانهم بهؤلاء الجنود . وفي الثانية إخبارٌ للمنافقين أنه إن شاء انتقم منهم بهؤلاء الجنود .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ تشهد على الناس فيما أجابوك به من دعوتك إلى الله ، ومبشراً لمن آمن بالجنان ، ونذيرا لمن عصى بالنيران .

﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ بينا لكم ما تقدم لكي تؤمنوا بالله ورسوله وتنصروه وتعظموه . والضمير جائز أن يعود على الله جل وعلا ، وجائز أن يعود على النبي

صلى الله عليه وسلم ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ أي تنزهوه عن النقائص والعيوب غدوةً وعشياً وقيل معنى تسبحوه أي تصلوا له بالغداة والعشي .

قال الطبري : اختلفت القرّاء في قراءة قوله﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ فقرأ جميع ذلك عامة قرّاء الأمصار خلا أبي جعفر المدني وأبي عمرو بن العلاء بالتاء (لِتُؤْمِنُوا – وَتُعَزِّرُوهُ – وَتُوَقِّرُوهُ – وَتُسَبِّحُوهُ) بمعنى: لتؤمنوا بالله ورسوله أنتم أيها الناس وقرأ ذلك أبو جعفر وأبو عمرو كله بالياء (لِيُؤْمِنُوا – وَيُعَزِّرُوهُ – وَيُوَقِّرُوهُ – وَيُسَبِّحُوهُ) بمعنى: إنا أرسلناك شاهداً إلى الخلق ليؤمنوا بالله ورسوله ويعزّروه. والصواب من القول في ذلك: أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب .انتهى

وقال القرطبي: قرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو (ليؤمنوا) بالياء ، وكذلك (يعزروه ويوقروه ويسبحوه) كله بالياء على الخبر. واختاره أبو عبيد لذكر المؤمنين قبله وبعده ، فأما قبله فقوله ﴿ لِّيُدْخِلَ ﴾ وأما بعده فقوله﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ الباقون بالتاء على الخطاب .انتهى

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾يوم الحديبية يعني بيعة الرضوان عند الشجرة﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ لأن طاعة الرسول طاعة لله الذي أرسله كما قال تعالى ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ من(٨٠) سورة النساء فالله أمره أن يبايع الناس فإذا بايعوه كانوا مبايعين لمن أرسله . وقوله ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ تأكيد لهذه البيعة وتحذير من نكثها . قال الطبري : وَجْهَانِ مِنَ التَّأْوِيلِ : أَحَدُهُمَا: يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ عِنْدَ الْبَيْعَةِ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُبَايِعُونَ اللَّهَ بِبَيْعَتِهِمْ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالآخَرُ : قُوَّةُ اللَّهِ فَوْقَ قُوَّتِهِمْ فِي نُصْرَةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى نُصْرَتِهِ عَلَى الْعَدُوِّ .انتهى وليس في الوجه الأول تمثيل ولا في الثاني تأويلٌ أو تعطيل . فإن يد الله فوق أيديهم على الحقيقة ولا يستلزم ذلك المماسة أو المباشرة فإذا كانت ذاته العلية فوق المخلوقات فيداه من ذاته ، وقوله في الوجه الآخر : قوة الله فوق قوتهم . من التفسير باللازم ، فإنه يلزم من كون يده فوق أيديهم أن تكون قوته فوق قوتهم . فليس فيه إنكار صفة اليد لله جل وعلا . فالآية تدل على إثبات صفة اليد ، وتدل على الرضا

والإقرار بالبيعة . قال الشيخ بن باز : هذه الآية عند أهل السنة تدل على أمرين : الأمر الأول إثبات اليد لله عز وجل ... الأمر الثاني : أنه سبحانه يقر هذه البيعة ويرضاها .انتهى. وقال العثيمين ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ على ظاهرها وحقيقتها ، فإن يد الله تعالى فوق أيدي المبايعين لأن يده من صفاته وهو سبحانه فوقهم على عرشه فكانت يده فوق أيديهم. وهذا ظاهر اللفظ وحقيقته وهو لتوكيد كون مبايعة النبي صلى الله عليه وسلم مبايعة لله عز وجل ، ولا يلزم منها أن تكون يد الله جل وعلا مباشرة لأيديهم ، ألا ترى أنه يقال: السماء فوقنا مع أنها مباينة لنا بعيدة عنا . فيد الله عز وجل فوق أيدي المبايعين لرسوله صلى الله عليه وسلم مع مباينته تعالى لخلقه وعلوه عليهم. ولا يمكن لأحد أن يفهم أن المراد بقوله﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ يد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا أن يدعي أن ذلك ظاهر اللفظ ، لأن الله تعالى أضاف اليد إلى نفسه ، ووصفها بأنها فوق أيديهم. ويد النبي صلى الله عليه وسلم عند مبايعة الصحابة لم تكن فوق أيديهم ، بل كان يبسطها إليهم فيمسك بأيديهم كالمصافح لهم ، فيده مع أيديهم لا فوق أيديهم .انتهى من القواعد المثلى وقال شارح القواعد المثلى : للمفسرين خمسة أقوال في الآية:

أحدها : يد الله في الوفاء فوق أيديهم .

والثاني : : يد الله في الثواب فوق أيديهم .

والثالث : يد الله عليهم في المنة بالهداية فوق أيديهم بالطاعة ذكر هذه الأقوال الزجاج .

والرابع : قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم ذكره ابن جرير وابن كيسان لكن إذا كان هذا المعنى مع إثبات اليد فإنه يكون من باب مرأى منا في الآية التي سبقت .

الخامس : ما اختاره المؤلف وهو الذي عليه السلف ..انتهى

﴿ فَمَن نَّكَثَ ﴾فلم يوفي بما بايع به ﴿ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ ﴾لأنه لن يحصل على الأجر ﴿ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ ﴾ومن التزم بالبيعة فلم ينكث ﴿ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمَۢا ١٠ ﴾

فسيعطيه الله ثواباً عظيماً وهو الجنة . وكانوا قد بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم على الموت في قول سلمة بن الأكوع وعلى أن لا يفروا في قول جابر. فعلم الله صدق نواياهم فرضي عنهم .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ ﴾ سيقول لك الذين تخلفوا عن الخروج معك من الأعراب الذين حول المدينة ﴿ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ خشينا عليهم من الضيعة إذ لا قائم عليهم إلا نحن . قال القرطبي: قال مجاهد وابن عباس: يعني أعراب غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع والديل ، وهم الاعراب الذين كانوا حول المدينة ، تخلفوا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين أراد السفر إلى مكة عام الفتح ، بعد أن كان استنفرهم ليخرجوا معه حذراً من قريش ، وأحرم بعمرة وساق معه الهدي ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً ، فتثاقلوا عنه واعتلوا بالشغل فنزلت .انتهى ﴿ فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾. في تقصيرنا في حق الله . وكانوا كاذبين في دعواهم تلك ، ففضحهم الله واطلع نبيه على ما في قلوبهم ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ فإن قلوبهم قد اشتملت على النفاق ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ قل لهم يا محمد فمن هو الذي يستطيع أن يرد عنكم أمر الله إذا أراده بكم ، سواءً أراد بكم ضراً ، أو أراد بكم نفعاً فلا أحد يستطيع أن يمنع عنكم ضره ، ولا أن يحجب عنكم نفعه ، فالأمر أمره ، والخلق خلقه كلهم تحت تصرفه وتدبيره . قال القرطبي : وهذا ردٌ عليهم حين ظنوا أن التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضر ويعجل لهم النفع .انتهى . ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ ﴾ فيجازيكم بمقتضى أعمالكم .

﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ هذا هو الذي كان في قلوبهم وليس ما قالوه بألسنتهم فقد ظنوا أن لن يرجع الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً فيهزموا ويقتلوا أو يحبسوا حبساً مؤبداً .

﴿ وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ ورغبتم أن يكون ظنكم صحيحاً ، وقيل زُيِّنَ النفاق في قلوبكم ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ أن الله لا ينصر نبيه ولا يعلي كلمته ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ قال بن عباسٍ ومجاهد : هلكى . وقال قتادة : فاسدين . وقال الجوهري: البور: الرجل الفاسد الهالك الذي لا خير فيه. قال ابن الزبعري رضي الله عنه يعتذر للنبي صلى الله عليه وسلم :

يا رسول المليك إن لساني ... راتقٌ ما فتقت إذ أنا بور

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾ قال القرطبي : وعيدٌ لهم وبيانٌ أنهم كفروا بالنفاق .انتهى

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ تحت تدبيره وتصرفه ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ بمقتضى رحمته ﴿ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ بمقتضى عدله ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾ ختم بالمغفرة والرحمة ليعلم العباد سعة رحمة الله وأنها أولى عنده من العذاب كما في الحديث القدسي (سبقت رحمتي غضبي) متفق عليه

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ يعني مغانم خيبر لأن الله جل وعلا وعدها أهل الحديبية وكلامه لا يبدل. ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ لأن الله جل وعلا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عند منصرفه من الحديبية أن يأخذ معه لخيبر غير أهل الحديبية . ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أن نأخذ من الغنائم ﴿ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ أن وعد الله لا يخلف وقوله لا يبدل . قال القرطبي : يعني لا يعلمون إلا أمر الدنيا. وقيل: لا يفقهون من أمر الدين إلا قليلا .انتهى

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ أي تقاتلونهم حتى يسلمون . وقد اختلفوا في هؤلاء القوم ذوي البأس الشديد فقيل هم بنو حنيفة وقيل فارس والروم وقيل هوازن وثقيف وقيل غيرهم والمقصود أنهم سيدعون إلى قومٍ أشداء في القتال

اختباراً لهم هل ما زالوا باقين على نفاقهم فإن المنافق يجبن عند اللقاء أم صحت نيتهم للجهاد حين قالوا ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ قال ﴿ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ لأن الطاعة دليل صحت النية ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ لأن توليكم دليل بقاءكم على نفاقكم .

ثم بيَّن الله جل وعلا من يعذر في ترك الخروج للجهاد فقال ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ أي في القعود لأنهم معذورون ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ على حسب استطاعته بصدق نية ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ في الدار الآخرة . ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ يعرض عن الطاعة ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ موجعاً وهو عذاب النار .

﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ في الحديبية وكانوا بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على الموت أو على أن لا يفروا ، وسميت تلك البيعة بيعة الرضوان لأجل هذه الآية ، وكانوا ألفاً وأربعمائه ، وقال صلى الله عليه وسلم (لا يدخل النار رجل بايع تحت الشجرة) ﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ من الصدق مع الله في الوفاء بالبيعة ﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي الطمأنينة والثبات . ﴿ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ وهو فتح خيبر .

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ أي وأثابهم مغانم كثيرة يحصلون عليها في مستقبل أيامهم . ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾ عزيزاً في سلطانه . حكيماً في تدبيره .

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ أي عجل لكم غنائم خيبر . ﴿ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ قال قتادة : كف أيدي الناس عن بيوتهم وعن عيالهم بالمدينة حين ساروا إلى الحديبية وإلى خيبر . وقيل كف أيدي قريش عن قتالكم في الحديبية . ويمكن أن يكون الكف لأيدي أهل خيبر فإنهم استسلموا ولم يقاتلوا . ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي علامةً للمؤمنين يستدلون بها على صدق الرسول فيما يخبرهم به عن ربه ، ويستدلون بها على

أن وعد الله صدق ، وأن نصره قريب ، وأنه يحفظ عباده ويتولى أمرهم . ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾ ويدلكم على الطريق الذي لا اعوجاج فيه ، أي يدلكم على العقيدة الصحيحة التي توصلكم إلى ما فيه خيركم في الدنيا والآخرة . وقال البغوي : يثبتكم على الإسلام ، ويزيدكم بصيرة ويقينًا .انتهى

﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا ﴾ أي ووعدكم الله فتوحات أخرى وغنائم أخرى لم تقدروا عليها حتى الآن ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ أنها لكم . والإحاطة هنا إحاطة علمٍ وقدرة ، ولذلك قال ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ أن ينصركم ويفتح لكم البلدان . واختلفوا في الأخرى التي لم يقدروا عليها فروي عن علي وابن عباس وعبد الرحمن بن أبي ليلى والحسن ومقاتل: أنها فارس والروم . وقال قتادة : هي فتح مكة . ورجحه الطبري . وقال عكرمة : يوم حنين . وقال مجاهد : ما فتحوا حتى اليوم . وروي عن بن عباسٍ وابن زيد والضحاك وابن إسحاق : أنها خيبر . وعندهم أن الذي عُجِّل لهم هو الصلح . ولا شك أن قول مجاهد هو الراجح لعموم الآية ولا دليل على التخصيص بفتحٍ دون آخر ولا بغنيمةٍ دون أخرى . إلا أنه مخصوصٌ بسياق الآيات بأهل بيعة الرضوان فهم المبشرون بذلك .

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من أهل مكة ولم يصالحوكم ، وقيل أهل خيبر ، وقيل غطفان وأسد وكانوا أرادوا غزو المدينة حين علموا بخلوها من الرجال الذين خرجوا مع رسول الله لصلح الحديبية أو غزو خيبر فكف الله أيديهم ومنعهم بما شاء من المسير إلى المدينة ، وهذا معنى قول قتادة في تفسير قوله تعالى ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ ﴾ قال قتادة : كف أيدي الناس عن بيوتهم وعن عيالهم بالمدينة حين ساروا إلى الحديبية وإلى خيبر .انتهى ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ﴾ فراراً منكم ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ ﴾ يمنعهم منكم ، وهذا هو النصر بالرعب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (نُصِرْتُ بالرعب) يعني الذي يقذفه الله في قلوب الكافرين خوفاً من المؤمنين .

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣ ﴾ أي طريقة الله وعادته التي مضت في عبادة من قبل أنه ينصر أوليائه ويخذل أعدائه ، ولن تجد لطريقة الله وعادته تغييراً .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤ ﴾ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ ثَمَانِينَ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ هَبَطُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ جَبَلِ التَّنْعِيمِ مُتَسَلِّحِينَ يُرِيدُونَ غِرَّةَ النبي صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابِهِ فَأَخَذَهُمْ سَلَمًا فَاسْتَحْيَاهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ رواه مسلم وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه في حديثه الطويل في قصة صلح الحديبية وما تبعه قال (فَلَمَّا اصْطَلَحْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ مَكَّةَ وَاخْتَلَطَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ أَتَيْتُ شَجَرَةً فَكَسَحْتُ شَوْكَهَا فَاضْطَجَعْتُ فِي أَصْلِهَا قَالَ فأتانى أَرْبَعَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فَجَعَلُوا يَقَعُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأَبْغَضْتُهُمْ فَتَحَوَّلْتُ إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى وَعَلَّقُوا سِلاَحَهُمْ وَاضْطَجَعُوا فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ نَادَى مُنَادٍ مِنْ أَسْفَلِ الوادي يَا لَلْمُهَاجِرِينَ قُتِلَ ابْنُ زُنَيْمٍ. قَالَ فَاخْتَرَطْتُ سيفي ثُمَّ شَدَدْتُ عَلَى أُولَئِكَ الأَرْبَعَةِ وَهُمْ رُقُودٌ فَأَخَذْتُ سِلاَحَهُمْ. فَجَعَلْتُهُ ضِغْثًا فِي يَدِى قَالَ ثُمَّ قُلْتُ وَالَّذِى كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ لاَ يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَأْسَهُ إِلاَّ ضَرَبْتُ الَّذِى فِيهِ عَيْنَاهُ . قَالَ ثُمَّ جِئْتُ بِهِمْ أَسُوقُهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ وَجَاءَ عَمِّى عَامِرٌ بِرَجُلٍ مِنَ الْعَبَلاَتِ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزٌ. يَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى فَرَسٍ مُجَفَّفٍ فِي سَبْعِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ (دَعُوهُمْ يَكُنْ لَهُمْ بَدْءُ الْفُجُورِ وَثِنَاهُ) فَعَفَا عَنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾ الآيَةَ كُلَّهَا. رواه مسلم

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ﴾ أن تعتمروا ﴿ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ ﴾ أي محبوساً عن محل نحره وهو الحرم ، ومنه الاعتكاف أي حبس النفس في المسجد ﴿ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ ﴾ أنهم أسلموا لأنهم مسرين بإسلامهم ﴿ أَن

﴿ تَطَئُوهُمْ ﴾ فتقتلوهم . ﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ قال بن زيد : المعرة الإثم . وقال ابن إسحاق : الدية . وقال الطبري : الكفارة . لأنه لا دية لمن قتله المسلمون في دار الحرب خطأ كما قال تعالى ﴿ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ من (٩٢) سورة النساء وقيل المعرة : العيب أي يعيبكم الكفار بأنكم قتلتم أهل دينكم . وقيل المعرة : الغم والجزع . ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ المراد الكفار من أهل مكة الذين كتب الله أن يسلموا في مستقبل الأيام فيدخلهم الله في رحمته ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ ﴾ أي تمايزوا عن بعض . ﴿ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ وهو القتل بأيدي المؤمنين .

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ وهي الأنفة التي دعتهم إلى رد الحق حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن البيت الحرام وهم يحرمون ذلك في دينهم ولكن قالوا لا يدخلونها علينا عنوة فتتحدث العرب أنهم دخلوها علينا عنوةً فتركوا ما يدينون به لأجل الحمية . قال مقاتل : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم الحديبية ومعه الهدي قال كفار مكة : قتل آباءنا وإخواننا ، ثم أتانا يدخل علينا في منازلنا ونساءنا ، وتقول العرب: إنه دخل على رغم آنافنا ، والله لا يدخلها أبداً علينا ، فتلك الحمية التي في قلوبهم .انتهى ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي الطمأنينة والثبات فلم تدخلهم الحمية فيبادروهم بالقتال . ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ قال الطبراني : كلمةُ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ، الكلمةُ التي يُتَّقَي بها من الشِّرك . قال : والحميَّةُ في اللغة : هي الأَنَفَةُ التي تَحمِي الإنسانِ كأنَّ قُلوبَهم حَمِيَّةٌ لِمَعصِيَةِ اللهِ ، فأنزلَ اللهُ بدلُّ ذلك على قلب نَبيِّهِ عليه السلام وعلى قلوب المؤمنين من الطُّمأنينةِ والسُّكون والوقَار والهيبةِ ، وألزَمَهم توحيدَ اللهِ والإيمان برسولهِ. انتهى

وقال البغوي : قال ابن عباسٍ ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة والسدي وابن زيد وأكثر المفسرين: كلمة التقوى (لا إله إلا الله) وروي عن أبيّ بن كعب مرفوعًا. وقال عليٌّ وابن عمر: كلمة التقوى (لا إله إلا الله ، والله أكبر) وقال عطاء بن أبي رباح: هي (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير) وقال عطاء الخراساني:

هي (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) وقال الزهري: هي (بسم الله الرحمن الرحيم) انتهى ﴿ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أحق بكلمة التوحيد وهم أهلها في سابق علم الله . ويمكن أن يكون المراد كانوا أحق بمكة والحرم . قال الماوردي : يحتمل وجهين: أحدهما : وكانوا أحق بكلمة التقوى أن يقولوها . الثاني : وكانوا أحق بمكة أن يدخلوها .انتهى وقيل المعنى : كان كفار مكة أحق بكلمة التقوى أن يقولوها لأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث أول ما بعث فيهم ولكنهم حرموا التوفيق . لكن قوله تعالى ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ يمنع هذا المعنى فليسوا لها بأهل . ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ لا يخفى عليه شيء .

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في المنام أنه وأصحابه يدخلون المسجد الحرام معتمرين وهم آمنون ورأى بعض أصحابه قد حلق وبعضهم قد قصر ، ورؤيا الأنبياء حق ، فلما كان صلح الحديبية ، وصدوا عن البيت ارتاب المنافقون وقال عمر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم : أَوَلَيسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ ؟ قَالَ (بَلَى ، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ) قَالَ: قُلْتُ : لاَ . قَالَ (فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ) رواه البخاري فأخبر الله جل وعلا أنه قد صدق رسوله الرؤيا وأنه سيعتمر في أمنٍ هو وأصحابه فكان ذلك بعد سنةٍ من صلح الحديبية . قال بن زيد : قال لهم النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِنِّي قَدْ رأيْتُ أَنَّكُمْ سَتَدْخُلُونَ المِسْجِدَ الحَرَام مُحَلِّقِينَ رُءوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ) فلما نزل بالحُديبية ولم يدخل ذلك العام طعن المنافقون في ذلك فقالوا: أين رؤياه؟ فقال الله﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ﴾ فقرأ حتى بلغ﴿ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ إني لم أره يدخلها هذا العام ، وليكوننّ ذلك .انتهى ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ قال القرطبي : أي علم ما في تأخير الدخول من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم. وذلك أنه عليه السلام لما رجع مضى منها إلى خيبر فافتتحها ، ورجع بأموال خيبر وأخذ من العدة والقوة أضعاف ما كان فيه في ذلك العام وأقبل إلى مكة على أُهبةٍ وقوةٍ وعدةٍ بأضعاف ذلك. وقال الكلبي: أي علم أن دخولها إلى سنة

ولم تعلموه أنتم. وقيل: علم أن بمكة رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم .انتهى ﴿ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ فجعل أقرب من ذلك أي من وقوع مصداق ما أخبرت به الرؤيا فتحاً قريباً . قال بن زيد والضحاك ومقاتل : فتح خيبر . وقال مجاهد والزهري وابن اسحاق: صلح الحديبية . ورجح الطبري شمول الفتحين لأنهما كليهما كانا دون تصديق الرؤيا بدخول المسجد الحرام . وأما من قال من المفسرين أنه فتح مكة فقوله بعيد لأن فتح مكة كان بعد عمرة القضاء لا دونها .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ قال بن جرير : بالبيان الواضح والإسلام . وقال مقاتل : بالهدى من الضلالة ، ودين الحق يعني : دين الإسلام ، لأن كل دينٍ باطل غير الإسلام . وقال بن كثير : بالعلم النافع والعمل الصالح . ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ ليعليه على الأديان كلها فلا يبقى غير الإسلام وذلك في آخر الزمان عند خروج المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ وحسبك يا محمد بالله شهيداً على نبوتك وصدقك فيما تخبر به .

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ هذه هي الشهادة للنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة حين اكتفى بالله شهيداً فشهد له الله بالرسالة . ثم امتدح الله جل وعلا أصحاب نبيه فقال ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ السيما العلامة أي تظهر على وجوههم علامة السجود وهو النور الذي يظهر على وجوههم. قال بن عباسٍ في رواية العوفي : هو نور وبياض في وجوههم يوم القيامة يعرفون به أنهم سجدوا في الدنيا . وقال عطاء بن أبي رباح والربيع بن أنس: استنارت وجوههم من كثرة ما صلوا . وقال بن عباسٍ في رواية الوالبي ومجاهد : ليس بالذي ترون لكنه سيماء الإسلام وسجيته وسمته وخشوعه. وقال الضحاك: هو صفرة الوجه من السهر. يعني في العبادة . وقال الحسن: إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما هم بمرضى. وقال عكرمة وسعيد بن جبير: هو أثر التراب على الجباه. قال أبو العالية: إنهم يسجدون على التراب لا على الأثواب. انتهى وأما

السواد الذي يكون في الجبهة فإنه يشترك فيه الصالح والطالح ، فليس هو المراد . قال منصور قال مجاهد : الخشوع . قلت : ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه ، فقال: ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون. ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ أي صفتهم في التوراة ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ ﴾ وصفتهم في الإنجيل ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ ﴾ قال أنس وقتادة والزهري : أخرج نباته وقال بن عباسٍ : سنبله حين يتسلع نباته عن حباته. وقال مجاهد : ما يخرج بجنب الحقلة فيتمّ وينمي. وقال مقاتل: هو نبت واحد ، فإذا خرج ما بعده فقد شطأه. وقال بن زيد : أخرج أولاده ، ثم كثرت أولاده. وهذا معنى قول كثيرٍ من المفسرين ﴿ شَطْـَٔهُۥ ﴾ فراخه . ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ فشد أزره أي قواه وأعانه ﴿ فَٱسْتَغْلَظَ ﴾ فغلظ واستقوى ﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ فاعتدل وارتفع على سوقه جمع ساق أي على أصوله. وقال البغوي : أي تم وتلاحق نباته وقام على سوقه .انتهى ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ من كثرته وحُسن نباته . ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ أي المزارعين سموا كفاراً من التغطية لأنهم يغطون الزرع حين بذر الحب ومنه سمي الكافر كافراً لأنه غطى نعمة الله عليه بالجحود . فهذه صفتهم في الإنجيل وهو مثل مضروب أنهم يكونون قليلاً ثم يكثرون ويتقون حتى تكون لهم دولة قوية تغيظ الكفار . قال الضحاك : يعني أصحاب محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون ويستغلظون. وقال ابن زيد في قوله ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ اجتمع ذلك فالتفت . قال: وكذلك المؤمنون خرجوا وهم قليل ضعفاء فلم يزل الله يزيد فيهم ويؤيدهم بالإسلام كما أيَّد هذا الزرع بأولاده فآزره فكان مثلاً للمؤمنين . قال القرطبي : وهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يعني أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون ، فكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفاً فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي أمره ، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفاً فيقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ نباته وأفراخه. فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان .انتهى وقيل في قوله تعالى ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ هي على ظاهرها واللام متعلقة بمحذوف أي فعل الله هذا لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ليغيظ بهم الكفار. وحينئذٍ يكون قد تم المثل عند قوله ﴿ يُعْجِبُ

ٱلزُّرَّاعَ ﴾ ويكون قوله ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ مستأنفة . قال القرطبي : روى أبو عروة الزبيري من ولد الزبير: كنا عند مالك بن أنس فذكروا رجلاً ينتقص أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقرأ مالك هذه الآية﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ حتى بلغ ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ فقال مالك: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد أصابته هذه الآية ، ذكره الخطيب أبو بكر .انتهى ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ هذا خاصٌ بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لقوله ﴿ مِنْهُم ﴾ منهم الدالة على الجنس أي من جنسهم . وقيل هي عامة لجميع المسلمين قال الطبري : وقوله﴿ مِنْهُم ﴾ يعني: من الشطء الذي أخرجه الزرع ، وهم الداخلون في الإسلام بعد الزرع الذي وصف ربنا تبارك وتعالى صفته. والهاء والميم في قوله﴿ مِنْهُم ﴾ عائد على معنى الشطء لا على لفظه، ولذلك جمع فقيل﴿ مِنْهُم ﴾ ولم يقل "منه". وإنما جمع الشطء لأنه أريد به من يدخل في دين محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم إلى يوم القيامة .انتهى وذكر بعض المفسرين أنه إذا أريد بالآية عموم المسلمين فتكون ﴿ مِنْهُم ﴾ دالةً على التبعيض لأنه ليس كل من آمن وعمل صالحاً يغفر له ابتداءً بل منهم من يدخل النار . فيقال لهؤلاء المفسرين : إن مغفرة الله شملتهم فأخرجهم الله من النار وأدخلهم الجنة ، ولولا رحمته ومغفرته لما خرجوا منها . والراجح أن الآية خاصة بالصحابة من أولها إلى آخرها وهي في مدحهم والثناء عليهم لما قدموه للإسلام والمسلمين ، وأما بقية المؤمنين فقد بيَّن الله في آياتٍ أخر أنه سيغفر لهم ويدخلهم الجنة ، فهم مشاركون للصحابة في المعنى وإن لم يشاركوهم في هذه الآية على الخصوص .

من دروس سورة الفتح

أولاً /في قوله تعالى ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ تحذيرٌ من الظن السيء بالله بل ينبغي على العبد المؤمن أن يحسن الظن بربه وقد جاء في الحديث القدسي (أنا عند ظن عبدي بي) متفق عليه وذلك لأنه إذا أحسن الظن بربه دعاه ذلك إلى إحسان العمل وأما إذا أساء الظن بربه فإن ذلك يدعوه إلى القنوط من رحمة الله وترك العمل .

ثانياً /في قوله تعالى﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ دليل على أن طاعة الرسول طاعة لله ومعصيته معصية لله فينبغي الحذر من التساهل في معصية الرسول .

ثالثاً / في قوله تعالى ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ دليل على أن المنافقين يبغضون المؤمنين ويتمنون موتهم وزوالهم وإن زعموا أنهم محبين لهم وأنهم إنما انشغلوا عن نصرتهم بأمور الدنيا لا كرهاً لهم .

رابعاً / في قوله تعالى﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ وفي قوله ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ إلى آخر السورة دليل على فضل الصحابة وعلو منزلتهم عند الله وأنهم عدول مزكون بتزكية الله لهم فمن انتقصهم أو حط من قدرهم فقد أكذب الله في قوله فيهم ولذلك عدَّ بعض أهل العلم منتقص الصحابة كافر .

تفسير سورة الحجرات

مدنية وآياتها (١٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ ﴾ قال ابن عباس: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه. وعنه : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة . وقال مجاهد: لاَ تَفْتَاتُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِهِ . وقال قتادة: ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون : لو أنزل في كذا وكذا الوضع كذا . قال الطبري : أي لا تعجلوا بقضاء أمرٍ في حروبكم أو دينكم قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله ، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله ، محكيّ عن العرب فلان يقدّم بين يدي إمامه بمعنى يعجل بالأمر والنهي دونه. انتهى وقال بن كثير : أي لا تسرعوا في الأشياء بين يديه ، أي: قبله ، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور .انتهى وقيل أنها نزلت في أبي بكرٍ وعمر فعن عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَمِّرِ الْقَعْقَاعَ بْنَ مَعْبَدٍ وَقَالَ عُمَرُ بَلْ أَمِّرِ الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ مَا أَرَدْتَ إِلَى أَوْ إِلاَّ – خِلاَفِي فَقَالَ عُمَرُ مَا أَرَدْتُ خِلاَفَكَ فَتَمَارَيَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا فَنَزَلَ فِي ذَلِكَ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ حَتَّى انْقَضَتِ الآيَةُ. رواه البخاري

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ : كَادَ الْخَيِّرَانِ أَنْ يَهْلِكَا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رَفَعَا أَصْوَاتَهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ رَكْبُ بَنِي تَمِيمٍ فَأَشَارَ أَحَدُهُمَا بِالأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ وَأَشَارَ الآخَرُ بِرَجُلٍ آخَرَ– قَالَ نَافِعٌ لاَ أَحْفَظُ اسْمَهُ – فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ مَا أَرَدْتَ إِلاَّ خِلاَفِي قَالَ مَا أَرَدْتُ خِلاَفَكَ فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا فِي ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ ﴾ الآيَةَ قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ رواه البخاري وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه. فأتاه فوجده في بيته مُنَكِّسًا رأسه فقال له:

ما شأنك؟ فقال: شر ، كان يَرْفَعُ صوته فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم فقد حبط عمله فهو من أهل النار. فأتى الرجل النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه قال كذا وكذا ، قال موسى: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال (اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة) رواه البخاري ورواه مسلم بعدة روايات وفي أحدها أن الرجل سعد بن معاذ رضي الله عنه وأنكر ذلك بن كثير فقال بعد ذكره لروايات مسلم : فهذه الطرق الثلاث مُعَلّلة لرواية حماد بن سلمة فيما تفرد به من ذكر سعد بن معاذ. والصحيح: أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ موجودًا لأنه كان قد مات بعد بني قريظة بأيام قلائل سنة خمس ، وهذه الآية نزلت في وفد بني تميم ، والوفود إنما تواتروا في سنة تسع من الهجرة والله أعلم .انتهى ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ احتراماً له وتبجيلا . قال مجاهد : لا تنادوه نداء ولكن قولوا قولاً ليناً يا رسول الله. ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ لأجل أن لا تحبط أعمالكم . قال بن كثير : أي: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك ، فيغضب الله لغضبه ، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري قال : وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صَوت رجلين في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ارتفعت أصواتهما ، فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: مِن أين أنتما؟ قالا من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره كما كان يكره في حياته لأنه محترم حياً وفي قبره صلوات الله وسلامه عليه .انتهى

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ قال مجاهد: أخلص . وقال قتادة : أخلص الله قلوبهم فيما أحب.﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ يعني ينادونك من خارج الحجرات وأنت في داخلها لم يستأذنوا عليك ولم يصبروا حتى تخرج . قال السيوطي : أَخرَج أحمد وَابن جَرِير وأبو القاسم البغوي وَابن مردويه والطبراني بسند صحيح من طريق أبي سلمة

بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس أنه أتى النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد اخرج إلينا فلم يجبه فقال : يا محمد إن حمدي زين وإن ذمي شين ، فقال : ذاك الله فأنزل الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ قال ابن منيع : لا أعلم روي للأقرع سند غير هذا . وأخرج الترمذي وحسنه وَابن جَرِير وَابن المنذر وَابن أبي حاتم عن البراء بن عازب في قوله﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ قال : جاء رجلٌ فقال : يا محمد إن حمدي زين وإن ذمي شين . فقال النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم : ذاك الله... وأخرج ابن إسحاق وَابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم وفد بني تميم وهم سبعون رجلاً أو ثمانون رجلا منهم الزبرقان بن بدر وعطارد بن معبد وقيس بن عاصم وقيس بن الحارث وعمرو بن أهتم المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق معهم عيينة بن حصن بن بدر الفزاري وكان يكون في كل سدة حتى أتوا منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادوه من وراء الحجرات بصوت جاف : يا محمد أخرج إلينا ، يا محمد أخرج إلينا ، يا محمد أخرج إلينا ، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد إن مدحنا زين ، وإن شتمنا شين ، نحن أكرم العرب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتم بل مدحة الله الزين وشتمه الشين وأكرم منكم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . فقالوا : إنا أتيناك لنفاخرك فذكره بطوله وقال في آخره : فقام التميميون فقالوا : والله إن هذا الرجل لمصنوعٌ له لقد قام خطيبه فكان أخطب من خطيبنا وقال شاعره فكان أشعر من شاعرنا قال : ففيهم أنزل الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ من بني تميم ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ انتهى من الدر وقال البغوي : قال قتادة: نزلت في ناسٍ من أعراب بني تميم جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنادوا على الباب .ويروى ذلك عن جابر قال: جاءت بنو تميم فنادوا على الباب: اخرج إلينا يا محمد ، فإن مَدْحَنا زين وَذَمَّنا شين ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: إنما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين ، فقالوا: نحن ناسٌ من بني تميم جئنا بشعرائنا وخطبائنا لنشاعرك ونفاخرك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت ولكن هاتوا) فقام شابٌ منهم فذكر فضله وفضل قومه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم

لثابت بن قيس بن شماس وكان خطيب النبي صلى الله عليه وسلم (قم فأجبه) فأجابه ، وقام شاعرهم فذكر أبياتًا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت (أجبه) فأجابه. فقام الأقرع بن حابس فقال: إن محمدًا لَمُؤْتًى له ، والله ما أدري هذا الأمر ، تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولاً ، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر وأحسن قولاً ، ثم دنا من النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (ما يضرك ما كان قبل هذا) ثم أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكساهم وقد كان تخلف في ركابهم عمرو بن الأهتم لحداثة سنه ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما أعطاهم ، وأزرى به بعضهم وارتفعت الأصوات وكثر اللغط عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل فيهم﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ ﴾ الآيات الأربع إلى قوله﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ ﴾ انتهى وقوله ﴿ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤ ﴾ قال الطبري : أي أكثرهم جهال بدين الله ، واللازم لهم من حقك وتعظيمك .انتهى

﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴾ عند الله لما في ذلك من توقير رسوله واحترامه وعدم أذيته ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ ﴾ لهم بسبب جهلهم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ ﴾ مرتكب كبيرة وهي الكذب والافتراء على الآخرين﴿ بِنَبَإٖ ﴾ بخبر ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ من صحة كلامه ﴿ أَن تُصِيبُواْ ﴾ كي لا تصيبوا بالقتل والسبي ونحوه ﴿ قَوۡمَۢا ﴾ مسلمين أو براء ﴿ بِجَهَٰلَةٖ ﴾ منكم لحقيقة حالهم أو تجهلون عليهم أي تخطون في حقهم . ﴿ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ بسبب فعلكم الخاطئ عن أمّ سلمة رضي الله عنها قالت: بعث رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم رجلاً في صدقات بني المصطلق بعد الوقعة ، فسمع بذلك القوم ، فتلقوه يعظمون أمر رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم قالت : فحدّثه الشيطان أنهم يريدون قتله ، قالت: فرجع إلى رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم فقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم ، فغضب رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم والمسلمون

قالت: فبلغ القوم رجوعه . قالت: فأتوا رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم فصفوا له حين صلى الظهر فقالوا: نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله بعثت إلينا رجلاً مصدّقاً فسررنا بذلك وقرّت به أعيننا ، ثم إنه رجع من بعض الطريق فخشينا أن يكون ذلك غضباً من الله ومن رسوله ، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال وأذّن بصلاة العصر قالت : ونزلت﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ وهذا الرجل هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط كما قال مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن أبي ليلى وغيرهم . قال الطبري : واختلفت القرّاء في قراءة قوله (فَتَبَيَّنُوا) فقرأ ذلك عامة قراء أهل المدينة (فَتَثَبَّتُوا) بالثاء ، وذُكر أنها في مصحف عبد الله منقوطة بالثاء. وقرأ ذلك بعض القرّاء فتبيَّنوا بالباء بمعنى: أمهلوا حتى تعرفوا صحته لا تعجلوا بقبوله وكذلك معنى (فَتَثَبَّتُوا). والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان متقاربتا المعنى فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب .انتهى

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ ﴾ قال المباركفوري : أي اِعْلَمُوا أَنَّ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ رَسُولَ اللَّهِ فَعَظِّمُوهُ وَوَقِّرُوهُ وَتَأَدَّبُوا مَعَهُ وَانْقَادُوا لِأَمْرِهِ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِكُمْ وَأَشْفَقُ عَلَيْكُمْ مِنْكُمْ وَرَأْيُهُ فِيكُمْ أَتَمُّ مِنْ رَأْيِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ .انتهى ﴿ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ ﴾ قال المباركفوري : أَيْ لَوْ أَطَاعَكُمْ فِي جَمِيعِ مَا تَخْتَارُونَهُ لَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى عَنَتِكُمْ وَحَرَجِكُمْ ، وَالْعَنَتُ هُوَ التَّعَبُ وَالْجُهْدُ وَالْإِثْمُ وَالْهَلَاكُ .انتهى﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ﴾ من فضله عليكم ﴿ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ ﴾ السالكون سبيل الرشاد .

﴿ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ ﴾ وذلك الأمر تفضلٌ تفضل الله به عليكم ونعمةً أنعمها عليكم ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بظواهركم وسرائركم ﴿ حَكِيمٞ ٨ ﴾ يضع الأمور في مواضعها اللائقة بها .

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴾ البغي هو مجاوزة الحد . قال الطبراني : البغيُ هو الاستطالَةُ والعدولُ عن الحقِّ وعمَّا عليه جماعةُ المسلمين.

والطائفةُ الباغِيَةُ هي التي تطلبُ ما ليس لها أنْ تَطْلُبَهُ .انتهى ﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي ترجع ﴿ فَإِن فَآءَتۡ ﴾ أي رجعت إلى أمر الله. ﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩ ﴾ أي العادلين في أحكامهم .

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠ ﴾ وفي هذا ردٌ على من يكفر مرتكب الكبيرة من الخوارج وغيرهم فسماهم إخوة مع أنهم متقاتلين فيما بينهم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴾ من السخرية وهي الاستهزاء أي لا يتنقصه لذنبٍ وقع فيه فلربما كان خيراً منه عند الله ، وقيل لا يسخر منه لفقره ، وقيل لغير ذلك ، والآية عامة . وفي الأثر : لا تشمت بأخيك فيعافيه الله ويبتليك . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (من رأى مبتلى فقال : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به ، وفضلني على كثيرٍ ممن خلق تفضيلا . لم يصبه ذلك البلاء) ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ أي لا يعيب بعضكم بعضاً . قال قتادة : لا يطعن بعضكم على بعض . ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ قال مجاهد : لا يدعو الرجل بالكفر وهو مسلم . وقال قتادة : لا تقل لأخيك المسلم يا فاسق يا منافق . وعن الحسن قال كان اليهودي يسلم فيقال له يا يهودي فنهوا عن ذلك . قال الأزهري في تهذيب اللغة : قال الزّجاج : معناه : لا يقول المُسلِم لمن كان نصرانياً أو يهوديّاً فأَسلَم لقباً يُعيِّره فيه بأنّه كان نصرانياً أو يهوديّاً ، ثم وكَّدَه فقال ﴿ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ أي : بئس الاسم أن يقول له يا يهوديّ وقد آمن .انتهى وقال في تحفة الأحوذي : أَيْ لَا يَدْعُو بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِلَقَبٍ يَكْرَهُهُ. وقال الزبيدي في تاج العروس : التَّنابُز : التّعايُر ، وهو أن يُلقِّب بَعْضُهم بعضاً بما يُعيِّرُه به ، وبه فُسِّر قَوْله تَعالى ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ ﴾ أي لا تُعايِروا بها بَعْضَكم بعضاً بما تَكْرَهون ، بل يجب أن يُخاطب المؤمنُ بأحبِّ الأسماءِ إليه . قيل : التَّنابُز : هو التّداعي بالألقاب ، وهو يَكْثُرُ فيما كان ذَمّاً . ومنه الحديث : أنّ رجُلاً كان يُنْبَزُ قُرْقُوراً أي يُلقَّبُ بقُرْقور .انتهى ﴿ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾ أي التهم التي لا بينة لها . قال صلى الله عليه وسلم (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث) ﴿ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ أي ذنب . قيل الاثم الظن السيء بالمسلم ، وأما ظن الخير به فليس فيه إثم . وقيل : هو أن يتكلم بالظن فإن لم يتكلم به فلا يلحقه إثم . قال الماوردي : فيه وجهان : أحدهما : يعني ظن السوء .الثاني : أن يتكلم بما ظنه فيكون إثما ، فإن لم يتكلم به لم يكن إثماً ، قاله مقاتل بن حيان .انتهى وقال البغوي : قال سفيان الثوري: الظن ظنان: أحدهما إثم وهو أن تظن وتتكلم به ، والآخر ليس بإثم وهو أن تظن ولا تتكلم .انتهى ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ التجسس البحث عن شيءٍ خفي حتى يطَّلع عليه ، والمحرم تتبع عثرات الناس الخفية . وأما التجسس لصالح المسلمين كمعرفة مكامن العدو من الكفار المحاربين والبغاة وقطاع الطريق ونحوهم من المفسدين في الأرض فليس بمحرم قال القرطبي : معنى الآية : خذوا ما ظهر ولا تتبعوا عورات المسلمين ، أي لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطلع عليه بعد أن ستره الله .انتهى قال صلى الله عليه وسلم (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته) ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ الغيبة ذكرك أخاك بما يكره في غيبته. قال صلى الله عليه وسلم (أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ذكرك أخاك بما يكره . قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته) ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ وصف الله الغيبة بهذا الوصف الشنيع وهو أكل لحم الميت فإذا كنتم تكرهون ذلك فإن الغيبة مثله فإن الغائب كالميت والحديث عنه بالسُبَةِ كأكل لحمه . قال الجزائري في أيسر التفاسير : فكما عرض عليكم لَحْمُ أخيكم ميتا فكرهتموه فاكرهوا إذاً أكل لحمه حيّاً وهو عرضه والعرض أعز وأغلى من الجسم .انتهى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في أقوالكم وأفعالك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ يقبل التوبة ويرحم من تاب .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ﴾ آدم وحواء ، وقيل خلقناكم من ماء ذكرٍ وأنثى فلكل إنسان أباً وأمَّاً إلا من كانت ولادته بمعجزة كعيسى عليه السلام . والأول أرجح لسياق الآيات فإنها تدل على ذم التكبر لأن الناس إخوة في النسب أباهم وأمهم واحدة فلماذا يتكبرون على بعض. ﴿ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا ﴾ كالخليجي والشامي والمصري والجزائري ونحو ذلك ﴿ وَقَبَآئِلَ ﴾ كالقرشي والثقفي والتميمي والجهني ونحو ذلك. وقيل الشعوب القبائل العظام كربيعة ومضر وقحطان وعدنان والقبائل ما يتفرع عنها . قال الطبري : يقول: وجعلناكم متناسبين ، فبعضكم يناسب بعضاً نسباً بعيداً ، وبعضكم يناسب بعضاً نسباً قريبًا ، فالمناسب النسب البعيد من لم ينسبه أهل الشعوب ، وذلك إذا قيل للرجل من العرب: من أيّ شَعْبٍ أنت؟ قال: أنا من مضر أو من ربيعة. وأما أهل المناسبة القريبة أهل القبائل ، وهم كتميم من مضر ، وبكر من ربيعة ، وأقرب القبائل الأفخاذ وهم كشيبان من بكر ، ودارم من تميم ، ونحو ذلك .انتهى ﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ لأجل أن يعرف بعضكم بعضاً فيقال هذا فلان بن فلان من قبيلة كذا وكذا . ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ أي منزلتكم عند الله بالتقوى فلن تنفعكم القبيلة ولا الوطن . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾

﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ نطقوا بالشهادتين ولكنهم لم يقروا في قلوبهم إقراراً تاماً بمقتضى الشهادتين ، فعندهم نقصٌ في العقيدة والإيمان ، لكن ليس عندهم كفرٌ ولا نفاق ، وإلا لم يكونوا مسلمين ، لكن عندهم نقص في التصديق ، فهم مسلمون لكن ليسوا بمؤمنين . قال الزهري : الإسلام القول والإيمان العمل . وقال بن زيد : لم يصدّقوا إيمانهم بأعمالهم. ويمكن أن يكون المعنى﴿ قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا ﴾ قولوا نطقنا بالشهادتين ولم يكن ذلك من قلب وعليه فيكونوا منافقين . قال سعيد بن جبير : أي استسلمنا خوف السبي والقتل . ونحوه عن مجاهد وابن زيد . وقوله تعالى ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّا ﴾ عامٌ أريد به الخصوص . قال مجاهد : هم أعراب بنى أسد بن خُزَيمة . وقال قتادة : لعمري ما عمت هذه الآية الأعراب ، إن من الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر، ولكن إنما أنزلت في حيّ

من أحياء الأعراب امتنوا بإسلامهم على نبيّ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم فقالوا: أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان .

﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾ أي لا ينقصكم من أجور أعمالكم الصالحة شيئاً بل يثيبكم عليها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ ختم الله بهذين الاسمين العظيمين الآية ليدل عباده على أن من أطاعه وأطاع رسوله يحصل مع أجر عمله على مغفرة ذنبة .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ من الريبة وهي الشك أي لم يكن عندهم شك في صدق الله ورسوله ﴿ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ في إيمانهم

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أنكم آمنتم بزعمكم ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أفلا يعلم ما في قلوبكم من الدين ، وهل يطابق ما قلتموه بألسنتكم أم يخالفه . ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ لا يخفى عليه شيء

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾ أي يجعلون لأنفسهم الفضل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اتبعوه وأسلموا . عن عبد الله بن أبي أوفى والحسن أنها نزلت في أناسٍ من العرب قالوا : يا رسول الله : أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان . وعن بن عباسٍ وسعيد بن جبير : أنها نزلت في أعراب بني أسد قالوا يا رسول الله أسلمنا وقاتلك العرب ولم نقاتلك . فقال الله ﴿ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ أي ليس لكم فضلٌ عليَّ بإسلامكم بل الفضل لله عليكم حين هداكم للإيمان إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان ، فإن الهداية للإيمان توفيقٌ من الله يوفق إليه من شاء من عباده تفضلاً عليه .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قال السعدي : أي الأمور الخفية فيهما ، التي تخفى على الخلق ، كالذي في لجج البحار ومهامه القفار، وما جنه الليل أو واراه النهار، يعلم قطرات

الأمطار وحبات الرمال ومكنونات الصدور وخبايا الأمور. انتهى ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ مطلعٌ عليه فيجازيكم بمقتضى أعمالكم .

من دروس سورة الحجرات

أولاً / في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١﴾ ﴾ المنع من تقديم قول أي أحد كائناً من كان على قول الله ورسوله كالذي يقدم قول إمامه بعد معرفته أن الدليل بخلاف قوله فذاك أمرٌ عظيم وقد قال بن عباسٍ : يوشك أن تنزل عليكم حجارةً من السماء أقول لكم قال رسول الله وتقولون قال أبو بكرٍ وعمر . وقال الإمام أحمد : عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان والله تعالى يقول ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ ﴾من (٦٣) سورة النور أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

ثانياً / في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ دليل على أن جليل القدر كالوالدين والعلماء والمشايخ والأمراء ينبغي أن لا يرفع المرء صوته فوق صوتهم بأن يعلي نبرته عليهم كالمستخف بمقامهم لأن ذلك من خوارم المروءة ومن قلة الأدب .

ثالثاً / في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ دليل على أنه ينبغي على الزائر الاستئذان بأدب وعدم إزعاج صاحب البيت بندائه من خارج البيت ومثله الذي يكرر طرق الباب أكثر من ثلاث أو يضغط الجرس بكثرة فكل ذلك يدل على قلة الأدب ، والمؤمن ينبغي أن يكون ذو أدب كريم الأخلاق كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)

رابعاً / في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ دليل على وجب التثبت في الأخبار قبل الحكم بها على

أحد ، لأنه قد يكون الخبر كاذباً أو لصاحبه عذرٌ بفعله ، وإصدار الحكم قبل التثبت يفضي إلى الندم الذي يمكن أن يكون قد فات أوان استصلاحه .

خامساً / في قوله تعالى ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ دليلٌ على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر ولا يخرج من الإيمان خلافاً للوعيدية من الخوارج وغيرهم الذين يقولون بكفر مرتكب الكبيرة وهنا رغم اقتتالهم فيما بينهم فقد سماهم الله مؤمنين ولم يخرجهم من الإيمان.

سادساً / في السورة نهيٌ عن جملةٍ من الأخلاق السيئة كالسخرية واللمز والتنابز بالألقاب وسوء الظن والتجسس بلا ريبة والغيبة ونحو ذلك وهذا يدل على سمو الإسلام ودعوته إلى مكارم الأخلاق وتحذيره من مساوئها فينبغي على المؤمن أن يعود نفسه على سمو النفس وكرم الأخلاق وليحذر من دنو النفس ومساوئ الأخلاق .

سابعاً / في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ دليل على أن المعيار عند الله التقوى فالكريم عند الله هو الذي يتقي الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه وليس الكريم عند الله ذو الجاه والنسب ، فينبغي على المؤمن عدم التكبر على الآخرين والتفاخر بالحسب والنسب والبلد ونحو ذلك فكل الناس أبوهم واحد وهو آدم وأمهم واحدة وهي حواء فهم إخوةٌ في النسب .

ثامناً / في قوله تعالى ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ دليلٌ على أن الهداية للدين وللتوبة توفيقٌ من الله يوفق الله إليها من شاء من عبادة تفضلاً عليه ، وليست هي شيء مكتسب يكسبه الانسان بذكائه أو خبرته أو قوته ، فينبغي على المؤمن الإكثار من شكر الله على هذه النعمة وسؤاله الثبات عليها .

تفسير سورة ق

مكية وآياتها (٤٥)

عن أم هشام بنت حارثة قالت: ما أخذت ﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾ إلا عن لسان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبا واقد الليثي ما كان يقرأ به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما ب ﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾ و ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾ وعن جابر بن سمرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرأ في الفجر ب ﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ ﴾ . قال بن كثير : والقصد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار كالعيد والجمع ، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب. انتهى وهذه السورة هي أول سور المفصل فقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: يحزبون القرآن ثلاثاً وخمساً وسبعاً وتسعاً وإحدى عشر وثلاثة عشر وحزب المفصل وحده. فإذا عددتها كما فعلوا وجدتها أول سورةٍ في حزب المفصل.

﴿ قٓ ﴾ من الحروف المقطعة وقد نزلت إهانةً للكفار فإنه قد تحداهم الله جل وعلا أن يأتوا بمثل هذا القران فلم يستطيعوا ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ۝٨٨ ﴾ سورة الإسراء ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور فما استطاعوا ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٣ ﴾ سورة هود ثم تحداهم أن يأتوا بسورةٍ واحدة فما استطاعوا ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ ﴾ سورة البقرة فنزلت هذه الحروف المقطعة في أوائل السور كأنه يقول لهم أليست هذه حروفكم التي تتحدثون بها فإنه قد نزل القران بها فلماذا لم تستطيعوا أن تأتوا بسورةٍ

تركبونها من مثل هذه الحروف وقوله ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ ﴾ يؤكد أن المراد بالحروف المقطعة تركيب القران فإنه يذكر القران بعدها مثنياً عليه بمعنى أنكم لن تأتوا بمثله في قوته وحكمته وإبداعه بل وفي كل شأنه كقوله تعالى ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ سورة البقرة وقوله ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ سورة السجدة وقوله ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾ سورة يس وقوله ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ ﴾ سورة غافر ونحو ذلك من الآيات .

وقوله ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ ﴾ كقوله تعالى ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ ﴾ أي كريمٌ شريفٌ مبارك ومجيد صيغة مبالغة من ماجد ، ومعناه في اللغة : الرفيع العالي والكريم والشريف والكثير الخير والحسن الخلق . وقد وصف الله جل وعلا نفسه بأنه مجيد وهو من أسماء الله كما قال تعالى ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣ ﴾ سورة هود فالله جل وعلا هو المجيد لكمال صفاته وسعة رحمته وبركاته وكثرة خيره وإنعامه . قال في معجم اللغة العربية المعاصر : المجيد اسم من أسماء الله الحسنى ، ومعناه : العظيم في ذاته ، الكثير الخير والإحسان . ووصف الله العرش بأنه مجيد لعظمته وسعته كما في قوله تعالى ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ ﴾ سورة البروج في قراءة من قرأ (المجيدِ) بالجر في هذه الآية وهي قراءة صحيحة متواترة . وعلى قراءة الضم تعود على ذو العرش أي صاحب العرش وهو الله جل وعلا .

﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ تعجب الكفار من إرسال رسولٍ إليهم من البشر ﴿ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ ﴾ غير ممكن في نظرهم وهذا كقوله تعالى ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ من (٢) سورة يونس وقوله ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤ ﴾ سورة الإسراء وتعجبوا أيضاً من البعث بعد الموت فقالوا ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ أبعد أن نموت وتأكلنا الأرض حتى نكون تراباً فيها نبعث من جديد أحياء ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ ﴾ ذلك الرجوع مستبعد وغير ممكن وقوعه فردَّ الله جل

وعلا عليهم فقال ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أي قد علم الله ما تأكل الأرض منهم عند موتهم ﴿ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ ﴾ يحفظ كل شيء عنهم أي فلن يفوتنا منهم أحد . فجمع مع العلم الكتابة ، والله جل وعلا ذكر الكتاب الحفيظ لزيادة الحجة عليهم وإلا فإن الله جل وعلا لن ينسى منهم أحداً فهو العليم الخبير وفي قصة موسى مع فرعون ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ﴾ سورة طه

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ أي النبوة والقران والإسلام قال القرطبي : أي القرآن في قول الجميع حكاه الماوردي. وقال الثعلبي: بالحق القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .انتهى ﴿ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ مختلط قد التبس عليهم دينهم فلا يعرفون الحق من الباطل . ويمكن أن يكون المراد اختلافهم في أقاويلهم عن الحق بين من يقول عنه أنه سحر ومن يقول أنه شعر ومن يقول أنه كهانة ومن يقول أنه أساطير الأولين فهم مختلفون في أقوالهم عن الحق وإن اتفقوا على التكذيب به . وقد روي عن أبي هريرة في هذه الآية قال : مريج أي: فاسد . وعن ابن عباس : منكر . وعنه : مختلف . وعنه : في أمر ضلالة . وقال سعيد بن جبير ومجاهد والحسن وقتادة ومعمر : ملتبس . وقال بن زيد : مختلط . وهو من اختلاف التنوع لا التضاد فإن المعنى متقارب وهو فساد أمرهم . قال البغوي : قال قتادة في هذه الآية: مَنْ تَرَكَ الحقَّ مرج عليه أمره والتبسَ عليه دينُهُ . وقال الحسن: ما ترك قوم الحق إلا مرج أمرُهُم. وذكر الزجَّاج معنى اختلاط أمرهم فقال: هو أنهم يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم مرةً شاعر ومرةً ساحر ، ومرةً مُعَلَّم ، ويقولون للقرآن مرةً سحر، ومرةً رَجَز ، ومرةً مفترى ، فكان أمرهم مختلطًا ملتبسًا عليهم .انتهى

ثم دعاهم جل وعلا إلى النظر والتفكر في آياته الكونية كخلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما ليعلموا أن الله جل وعلا القادر على خلق مثل هذه المخلوقات الهائلة العظيمة قادر على إعادة بعثهم بعد الموت فقال تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴾ نظر تفكرٍ واعتبار

﴿ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ﴾ بلا عمدٍ على ضخامتها فكانت متماسكةً قوية ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ بالكواكب والنجوم والشمس والقمر ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾ وليس فيها شقوق ولا فتوق ولا صدوع.

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ بسطناها ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ وهي الجبال التي تثبتها لئلا تميد بأهلها ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ ﴾ يبهج الناظر من حسنه وجماله وروعته .

﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ أي جعلنا ذلك لأجل أن يتبصر ويتذكر العبد الخاضع الرجَّاع إلى الله ليستدل بها على كمال قدرة الله وأن الذي خلق هذه المخلوقات على هذه الصفات العظيمة قادرٌ على إعادة خلق الناس مرةً أخرى للحساب والجزاء .

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ وهو المطر ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ ﴾ بساتين ﴿ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ ﴾ أي النبات الذي يحصد حبه كالبر والشعير والحنطة .﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ ﴾ أي طوال قال القرطبي : الباسقات الطوال قاله مجاهد وعكرمة. وقال قتادة وعبد الله بن شداد: بسوقها استقامتها في الطول. وقال سعيد بن جبير: مستويات. وقال الحسن وعكرمة أيضاً والفراء: مواقير حوامل يقال للشاة بسقت إذا ولدت .انتهى ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾ ثمر متراكب بعضه على بعض . وقيل هو أول خروج الثمار قبل أن تنشق وتخرج من أكمامها فإذا خرجت من أكمامها فليست بنضيد .

﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ أي أنزلنا المطر وأنبتنا النبات رزقاً منا للعباد ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ قد أجدبت وقحطت فلا نبات فيها ولا ماء فأحياها الله بعد موتها ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ يوم القيامة فكما أحيا الله هذه الأرض الميتة بالماء والنبات فهو قادرٌ على إعادة الموتى أحياء للحساب والجزاء .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ ذكر الله أمر هؤلاء مختصراً وذكره مفصلاً في سورٍ أُخر وذلك تحذيراً للمكذبين أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك من العذاب ، وكذلك تسليةً للنبي

صلى الله عليه وسلم بأنه ليس أول من كُذِّب فقد كذبت قبل قومه أقوامٌ أُخر ، وقد اختلفوا في أصحاب الرس فقيل هم قومٌ رسوا نبيهم في بئر أي ألقوه فيها ، وقيل هو صاحب ياسين عندما قتله قومه ألقوه في الرس أي البئر . وقيل غير ذلك ، والمقصود أنهم قومٌ قتلوا نبياً أو رجلاً صالحاً وألقوه في بئر ، فعاقبهم الله جل وعلا فأهلكهم جميعاً . وأصحاب الأيكة قوم شعيب والأيكة الشجر الملتف من كثرته فقد كانوا أصحاب غيضة أي مكان كثير الشجر قال قتادة : كَانُوا أَصْحَابَ غَيْضَةٍ , وَكَانَتْ عَامَّةُ شَجَرِهِمُ الدُّومَ .انتهى واختلفوا في تبع أيضاً فقيل هو نبي وقيل رجل صالح وقيل تبع اسم ملوك اليمن كما أن كسرى اسم ملوك فارس وقيصر اسم ملوك الروم وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن سب تبع وكذا روي عن عائشة أم المؤمنين وقال كعب سب الله قومه ولم يسبه . وهذا يدل على أنه رجل واحد إما نبي أو رجل صالح لم يطيعه قومه في توحيد الله فأهلكهم الله .

وقوله تعالى ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ أي حق فيهم وعيد الله بإهلاك المكذبين ونصرة الصالحين .

﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ لم يعيينا أي لم يتعبنا ولم يكلفنا خلقهم الأول ولكنهم في شكٍ من إعادة خلقهم من جديد . فهم مقرون بأن الله جل وعلا خلقهم ولم يثقله ذلك أفيثقله إعادة الخلق مرةً أخرى ، ولا شك أن الخلق الأول أصعب في عرف الناس من إعادة الخلق مرةً ثانية كقوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ من (٢٧) سورة الروم وفي الحديث (يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم ، يقول: لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته) رواه البخاري ونرى مثلاً صناعة السيارة أول مرة أصعب من إعادة صناعتها بعد تلفها ، وهكذا سائر المصنوعات ، لكن الله جل وعلا كل شيءٍ عنده سهل يسير لا ثقله ولا يكلفه ولا يتعبه ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ سورة يس

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ من الخواطر والأفكار ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ العرق الذي بين الرقبة والعاتق وقيل نياط القلب والمقصود أن الله أقرب إليه بعلمه

وقدرته من بعض أجزاءه أي من نفسه . وقال بن كثير : يعني الملائكة كقوله تعالى ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ سورة الواقعة يعني الملائكة .

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ ومع إحاطته به جل وعلا علماً وقدرة فلم يكتف بذلك بل وكل به ملكان لإقامة الحجة عليه يقعدان عن يمينه وشماله الله أعلم بمكان قعودهما ، يتلقيان ما يقوله أو يعمله من خير أو شر فيكتبانه عليه . وقيل معنى القعيد أي الملازم الذي لا يبرح .

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ كل لفظٍ يلفظه محفوظٌ عليه قد وكل الله به ﴿ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ أي حافظٌ حاضر وهما الملكان اللذان تقدم ذكرهما وإنما أفردهما هنا لأن لكل واحدٍ منهما عملٌ خاص فأحدهما حافظ حاضرٌ يكتب الألفاظ السيئة ، والآخر حافظٌ حاضرٌ يكتب الألفاظ الحسنة ، ويمكن أن يكون أراد بالرقيب العتيد اسم الجنس كقوله تعالى لموسى وهارون ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة الشعراء أي من جنس رسل رب العالمين . وقد اختلفوا هل يكتب الملكان كل لفظٍ يلفظه ولو كان مباحاً ؟ أم لا يكتبان إلا الحسنات والسيئات ؟ فقيل يكتبان كل شيء حتى قوله أكلت وشربت ونمت قال مجاهد : يكتب على ابن آدم كل شيء يتكلم به حتى أنينه في مرضه. ونحوه عن أبي الجوزاء . وجاءت بنت الربيع بن خيثم وعنده أصحاب له فقالت : يا أبتاه أذهب ألعب ، قال : لا ، قال له أصحابه : يا أبا يزيد اتركها ، قال : لا يوجد في صحيفتي أني قلت لها : اذهبي فالعبي ، لكن اذهبي فقولي خيراً وافعلي خيرا. وعن بن عباسٍ قال : إنه ليكتب قوله أكلت شربت ذهبت جئت رأيت حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خيرٍ أو شر وألقى سائره فذلك قوله ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ من (٣٩) سورة الرعد وقال عطاء بن أبي رباح: إن من كان قبلكم كان يكره فضول الكلام ما عدا كتاب الله أن يقرأه أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر ، وأن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها ، أتنكرون أن عليكم حافظين كراما كاتبين ، وأن عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد

أما يستحي أحدكم لو نشر صحيفته التي ملأ صدر نهاره وأكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه. انتهى

وقيل : لا يكتبان إلا الحسنات والسيئات وهو مرويٌ عن ابن عباسٍ وعكرمة .

والآية دليل للقول الأول .

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي ما يغشى الإنسان عند الموت من الشدائد . قال القرطبي : روي إن الموت أشد من ضربٍ بالسيوف ونشرٍ بالمناشير وقرضٍ بالمقاريض .انتهى ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ اختلف في المراد بالحق هنا فقيل المراد الموت أي جاءت هذه السكرات دالةً على الموت الذي هو حقٌ على الخلائق كلها ، وقيل المراد بالحق أي الوعد والوعيد لأنه يبشر عند الموت بالجنة أو النار. وقيل المراد بالحق الله جل وعلا أي عرف الله حق المعرفة عند موته بما عاينه من ملائكته وذهاب غشاوته . ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ أي تفر منه وتميل عنه .

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ للبعث والجزاء ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ ﴾ الذي توعد فيه الكفار بالعذاب.

﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ سائقٌ يسوقها إلى أمر الله ، وشهيدٌ يشهد عليها بما عملت ، وقد اختلفوا في السائق والشهيد فتركها مطلقةً عثمان بن عفان وقتادة والحسن والربيع بن أنس ومجاهد في إحدى الروايات عنه . وقيل هما من الملائكة وهو قول مجاهد في الرواية الأخرى عنه وقول بن زيد . وقيل السائق من الملائكة والشهيد الإنسان يشهد على نفسه وقيل جوارحه تشهد عليه وهو قول بن عباسٍ والضحاك . وقيل السائق من الملائكة والشاهد العمل يشهد على صاحبه وهو مروي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في قول زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن ، وعليه يكون المعنى في غفلة عن النبوة والقران وأمر الآخرة ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ بالوحي حين أنزلناه عليك ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ تبصر الأمر على حقيقته .

وقيل الخطاب للكافر وهو قول بن عباسٍ والضحاك ، وعليه يكون معنى ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ أي في ذهول عن العمل للآخرة أو لا تكترث بها أو تكذب ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ الذي حال بينك وبين التصديق بالآخرة والعمل لها ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي يوم القيامة تبصر ما وعدت به .

وقيل الخطاب للناس جميعاً وهو قول حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس. ورجحه الطبري وابن كثير ، وعليه يكون معنى ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ أي لم تره على حقيقته ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ حين بعثناك بعد الموت ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ تبصر كلما وعدت به .

ولا يمكن الجمع بين الأقوال الثلاثة ، فهي من اختلاف التضاد لا التنوع ، لأن لكل قولٍ معنىً مختلف ، لكن سياق الآيات يدل على القول الثالث فقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ وقوله ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ يدل على العموم ولذلك اختاره الطبري وابن كثير وهما منهما في علم التفسير وقال القرطبي : هو قول أكثر المفسرين . انتهى

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ قيل هو الملك الموكل به وهو قول الحسن وقتادة والضحاك وعليه يكون معنى ﴿ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ أي هذا ما عندي من كتابة عمله مُعَدٌ محفوظ. وقيل قرينه الشيطان الذي قيض له ويكون معنى ﴿ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ أي هذا الذي وكلت به أحضرته . وهذا قول مجاهد. وقال الزمخشري : أي اعتدته للنار بإغوائي له . وقيل هو قرينه من الانس ويكون معنى ﴿ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ هذا الذي أحبه ويحبني . وهذا قول بن زيد .

ولا شك أن هناك قريناً من الجن مع الإنسان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (ما من أحدٍ إلا وقد وكل به قرينه من الجن) قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال (ولا أنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير) وقرناء الانس كثير وسياق الآيات بعدها يدل على أن المراد أحدهما لا الملك فقوله تعالى ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ لا يقوله ملك لأن الملك لا يأمر بالطغيان أصلاً ، وكونه قرينه الجني أقرب ، لأن قرناء الانس منهم

الصالحون الذين يأمرون بالخير ، لكن الشيطان لا يأمر إلا بالضلالة ، فتكون الخصومة معهم أكثر . وإنكاره هنا لإغوائه لا ينافي إثباته لإغوائه في الآية السابقة ، فإما أن يكون المعنى : ما أطغيته يعني ما أجبرته على الضلال ولكني زينته له ، وإما أن يكون يعترف بإغوائه أول ما يأتي به فإذا علم أنه سيدخل النار معه بسبب إغوائه له ينكر ويرجع عن اعترافه .

وقال بعضهم بل هو الملك وقوله ما أطغيته أي ما تجاوزت فيما كتبته عليه يعني حتى طغت سيئاته على حسناته ولكنها طغت بسبب أنه كان في ضلالٍ بعيد . قالوا ولو كان معنى القرين الشيطان لكان قوله أغويته مناقضاً لقوله ما أطغيته ولا يجتمع النقيضين .

والراجح أن المراد بالقرين الشيطان لسياق الآيات وتقدم الرد على دعوى التناقض .

﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ معاندٍ للحق والخطاب قيل هو للملكين السائق والشهيد وقيل هو للقرين وهو مفرد ولكن خوطب بلفظ التثنية قال الخليل والأخفش: هذا كلام العرب الفصيح أن تخاطب الواحد بلفظ الاثنين فتقول: ويلك ارحلاها وازجراها ، وخذاه وأطلقاه للواحد. وقال المبرد: هي تثنية على التوكيد والمعنى ألق ألق فناب (أَلْقِيا) مناب التكرار . والراجح أنه الملكان فالملائكة هم المكلفون بتعذيب الكفار ، وأما القرين فإن قلنا أنه جنيٌ أو انسي فليس لهم تكليف أن يعذبوا غيرهم ، وإن قلنا أنه ملك فليس من خزنة جهنم وإنما هو من الملائكة المكلفون بكتابة أعمال بني آدم وحفظها عليهم .

﴿ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ هذه من صفات الكافر أنه يمنع الخير من بخله وشحه على الدنيا ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ على غيره فلا خير ولا كفاية شر ﴿ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ ذو شك يعني في أمر الدين .

﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ أشرك مع الله غيره في العبادة ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾ وهو عذاب جهنم ، والأمر للملكان .

﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ أي شيطانه ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ لست أنا الذي جعلته يتجاوز حده إنما زينت له العصيان تزييناً ولم ألجأه إليه بالقوة ﴿ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ ولكن كان هو في

انحرافٍ وبُعْدٍ عن الحق . كقوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ من (٢٢) سورة إبراهيم

﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾ وهذا دليلٌ آخر على أن القرين ليس بملك إذ لا يخاصم الملك الناس بما عملوا وإنما يثبته عليهم كتابةً فلا يستطيعون أن ينكروا منه شيئاً ، وإنما الذي يخاصم الناس الشيطان فيقول الانسي ربنا إنه أغواني وأطغاني فيقول ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ فيقع بينهم خصومة فيقول الله جل وعلا ﴿ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾ لا تتخاصموا عندي فقد تقدم في الدنيا مني إليكم وعيد وتهديد لمن خالف أمري وأشرك بي أن مصيره النار فالآن لا تنفعكم الخصومة فإنه ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ فلا أجازيهم إلا بمقتضى أعمالهم .

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ في ذلك اليوم يقول الله جل وعلا لجهنم هل امتلأت وهي تطلب المزيد وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعزتك وكرمك ، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة) ورواه البخاري مختصراً وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم (تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . وقالت الجنة : فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغرتهم قال الله للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله تقول قط قط فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً)

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ قربت الجنة لعباد الله الذين اتقوه في الدنيا ففعلوا الأوامر واجتنبوا النواهي . ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ ﴾ عنهم حتى رأوها بأعينهم . وقال بن كثير : يوم القيامة ليس ببعيد لأنه واقعٌ لا محالة ، وكل ما هو آتٍ آت .انتهى ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾ أي الجنة التي وعد الله عباده المتقين ، والتي قد اعدها ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ أي الذي يئوب إلى ربه أي يرجع ويتوب من ذنبه ﴿ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ قيل هو الذي لا ينسى ذنوبه حتى يتوب منها ، وقيل هو المحافظ على الطاعات . قال الشعبي: الأواب هو الذي يذكر ذنوبه في خلاءٍ فيستغفر منها . والحفيظ هو المطيع لله كثير الصلاة. وعن أنس بن خباب قال : قال لي مجاهد : ألا أنبئك بالأواب الحفيظ هو الرجل يذكر ذنبه إذا خلا فيستغفر له. وقال قتادة : الأواب المطيع لله والحفيظ الذي يحفظ ما استودعه الله من حقه ونعمه . والجمع ممكن فالحفيظ هو الذي حفظ السيئات حتى تاب منها ، وحفظ الصالحات حتى قام بها ، يعني الفرائض والحقوق الواجبة .

﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ هذه من صفات المتقين أنهم يخشون الرحمن ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي بما وعدهم من أمور الغيب وهي النار وأهوال يوم القيامة ، أو يكون المعنى يخشون الرحمن ولم يروه بأعينهم. أو يكون المراد بالغيب أي في السر حيث لا يراهم أحد . قال بن كثير : من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله .انتهى وقال البغوي : معنى الآية: من خاف الرحمن وأطاعه بالغيب ولم يره. وقال الضحاك والسدي: يعني في الخلوة حيث لا يراه أحد. قال الحسن: إذا أرخى الستر وأغلق الباب .انتهى ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي جاء ربه بقلبٍ خاضعٍ تائبٍ مخلصٍ لله كقوله تعالى ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ سورة الشعراء

﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ قال القرطبي : أي بسلامة من العذاب. وقيل: بسلام من الله وملائكته عليهم. وقيل: بسلامة من زوال النعم .انتهى ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾ الذي لا موت بعده .

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ من أنواع النعيم ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ نعطيهم من عندنا دون أن يطلبونه مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقيل المزيد هو النظر إلى وجه الله

الكريم كقوله تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ من (٢٦) سورة يونس وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الزيادة بأنه النظر إلى الله تعالى كما في صحيح مسلم وغيره .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ وكم أهلكنا قبل هؤلاء المكذبين من قريش من القرون الذين كانوا أشد منهم قوةً ﴿ فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَادِ ﴾ أي ساروا وطافوا في البلاد . قال امرؤ القيس: لقد نَقَّبْتُ في الآفاق حَتّى ... رضيتُ من الغَنِيمة بالإيَابِ .

وقيل ملكوا فيها ، وقيل خرقوا فيها يعني من نحت الجبال بيوتاً وبناء الحصون والقلاع ونحو ذلك لتحميهم من الأعداء والموت. ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ فعلوا ذلك هرباً من الموت والعذاب فما نفعهم ذلك وما منعهم من أمر الله إذ جاءهم . قال الماوردي : فيه أربعة أوجه : أحدها : أثروا في البلاد ، قاله ابن عباس . الثاني : أنهم ملكوا في البلاد ، قاله الحسن .الثالث: ساروا في البلاد وطافوا ، قاله قتادة . الرابع : أنهم اتخذوا فيها طرقاً ومسالك ، قاله ابن جريج ويحتمل خامساً : أنه اتخاذ الحصون والقلاع .انتهى

وقيل الخطاب لكفار قريش أي نقبوا يا أهل مكة في البلاد هل تجدون لكم محيصاً من الموت.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ أي في أخبار أولئك القرون وما فعل الله بهم ذكرى ينتفع بها من كان له قلبٌ يعقل به ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ أي استمع على جهة التفهم ما يقال له بقلبٍ حاضرٍ غير لاهٍ ولا غافلٍ .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ من إعياءٍ ولا تعب ، وفي ذلك ردٌ على اليهود الذين يزعمون أن الله تعب من خلق السماوات والأرض فاستراح في اليوم السابع . وهذا من افتراءاتهم التي يفترونها على الله قاتلهم الله .

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أي على ما يقول اليهود ، وقيل على ما يقول المشركون .فإن الله لن يضره قولهم شيئاً إنما الضرر يعود عليهم حين يحاسبهم الله على أقوالهم وافتراءاتهم . ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ قيل المراد صلاة الفجر والعصر

وفي الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : كنا جلوساً ليلة مع النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ وقيل صلاة الفجر قبل طلوع الشمس وصلاة الظهر والعصر قبل الغروب . وقيل المراد ركعتين قبل صلاة الفجر وركعتين قبل صلاة المغرب ، وقيل المراد التسبيح بالقول . وأدركت العلماء يقرؤن أذكار الصباح قبل طلوع الشمس وأذكار المساء قبل غروبها .

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ قيل المراد صلاة العشاء ، وقيل صلاة المغرب والعشاء ، وقيل صلاة الليل كله ، وقيل التسبيح بالقول في الليل ﴿ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾ قيل المراد الركعتان بعد المغرب وهو قول علي بن أبي طالب وابنه الحسن وأبو هريرة وابن عباس ومجاهد والأوزاعي والشعبي وإبراهيم النخعي وقتادة ، وقيل هي النوافل كلها التي بعد الفريضة وهو قول بن زيد . وقيل هو التسبيح في أدبار الصلوات وهو قول بن عباس .

وليس بين الأقوال تعارض ، فيمكن الجمع بينها ، وأنه عني بها هذا وهذا ، فهو من اختلاف التنوع لا التضاد .

﴿ وَٱسْتَمِعْ ﴾ يا محمد أو يا أيها العاقل . أي : استمع نداء المنادي . وقيل : استمع ما أقول لك . وقيل : استمع سمع المستجيب المصدق ولا تكن مثل هؤلاء المعرضين الغافلين المكذبين وقيل : استمع بمعنى انتظر . وقيل : بمعنى استعد وتجهز . ﴿ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ ﴾ فسرها في الآية التالية بالصيحة وهي النفخة الثانية نفخة البعث . ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ ﴾ منهم بحيث يسمعونه بوضوح . حتى قيل أنه ملك قائم على صخرة بيت المقدس ينادي : يا أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. وقد رواه قتادة عن كعب الأحبار قال كعب وهي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً . وأقوال بني إسرائيل تذكر لكن لا تصدق ولا تكذب ولا تؤخذ على أنها تفسيرٌ قطعيٌ للقران إلا أن يأتي ما يصدقها وقد

قال ابن جرير حَدَّثَنِي عَلِيٌّ بْنُ سَهْلٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ قَالَ : ثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنِ الأَغَرِّ عَنْ مُسْلِمِ بْنِ حَيَّانَ عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ بُرَيْدَةَ أنه قال : ملك قائم على صخرة بيت المقدس واضع أصبعيه في أذنيه ينادي يقول : يا أيها الناس هلموا إلى الحساب. فإن صح هذا الخبر عن بريدة رضي الله عنه فينظر هل هو من الصحابة الذين يأخذون عن بني إسرائيل كابن عباسٍ وعبد الله بن عمرو فيكون له حكم الإسرائيليات ، وإن كان لا يعرف عنه الأخذ عن بني إسرائيل أو يعرف عنه عدم الأخذ عنهم فله حكم الرفع لأنه من الغيب الذي لا يعرف إلا عن طريق الوحي . لكن السند فيه مجهول وقد عُرِف أيضاً عن الوليد بن مسلم التدليس بالكذابين إذا عنعن فكيف إذا لم يصرح بالاسم .

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ ﴾ الثانية ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي البعث أو المراد الصيحة حق أي كائنة . ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾ من القبور أحياءً للحساب والجزاء .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ ﴾ قادرون على الإحياء والإماتة ﴿ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ﴾ المرجع يعني الرجعة إلى الدار الآخرة .

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ ﴾ ليخرجوا منها أحياء بعد أن كانوا في بطنها أمواتا ﴿ سِرَاعًا ﴾ أي يكون تشققها عنهم سريعاً أو المعنى يخرجون هم سراعاً إلى أرض المحشر كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ سورة المعارج وقوله ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ أي بعث الناس أحياء وجمعهم في صعيدٍ واحد يسير على الله لا يثقله ولا يتعبه .

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من تكذيبهم وشتمهم لك ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ أي بمسلط حتى تجبرهم على الهدى وإنما عليك البلاغ ولذلك قال ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ أي عظ بآيات القران من يخاف وعيدي بالعذاب لمن كذَّب وكفر بي . وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ سورة الغاشية أي مسلط .

أولاً / في قوله تعالى ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ وفي هذا درس لطالب العلم ألا يعتمد على الحفظ وحده حتى يجمع معه الكتابة فإذا كان الله جل وعلا الذي لا يضل ولا ينسى قد جمع مع العلم الكتابة فكيف بالبشر الذي هو عرضة للضلال والنسيان فالأولى به أن يكتب ما حفظ ولذلك قال العارفون :

العلم صيد والكتابة قيد قيّد صيودك بالحبال الواثقة

ثانياً / ذكر الله جل وعلا في هذه السورة بعض الآيات الدالة على كمال القدرة الإلهية كخلق السماوات وكيف زينها الله بالنجوم والكواكب ولا ترى في السماء فتوق ولا صدوع على ضخامتها وكونها بلا عمد وكذلك ذكر بعض دلائل قدرته في الأرض من بسطها وتثبيتها بالجبال وإنزال المطر عليها وإنبات النبات البديع المتنوع ونحو ذلك مما ذكره تعالى من آيات قدرته ليستدل بها صاحب العقل السليم على أن الله الذي خلق ذلك بهذا الإبداع والروعة قادرٌ على إحياء الناس وبعثهم من جديد وحسابهم على أعمالهم .

ثالثاً / في قوله تعالى ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾ وقوله ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ دليل على أن المرء يكتب عليه كل شيء فينبغي على المؤمن أن يحذر من أن يسجل عليه شيء يسوءه يوم القيامة من الكذب والغيبة والنميمة ونحو ذلك ، وليكثر من ذكر الله ليجد في صحيفته ما يسره يوم القيامة .

رابعاً / في قوله تعالى ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ دليلٌ على أنه ينبغي الحذر من قرناء السوء فهم يورطون الإنسان في الأعمال السيئة ثم يتبرئون منه أحوج ما يكون إليهم ، وكم سمعنا من قصصٍ عن أصحاب المخدرات وتوريطهم لقرناءهم ورميهم بالتهم عليهم حين يقبض عليهم خوفاً من رجال الأمن فهذا في الدنيا فكيف حين يعاينون عذاب الله لاشك أنهم أشد تبرئاً وعداوةً لقرناءهم كما قال تعالى ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا

ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ سورة الزخرف وقال النبي صلى الله عليه وسلم (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)

خامساً / في قوله تعالى﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ حث للداعية على وجه الخصوص والمؤمن على وجه العموم على الاستعانة بالصبر والعبادة على خصومة الأعداء ومشاكل الحياة كما قال تعالى﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ من (٤٥) سورة البقرة وأُخبِرَ ابن عباسٍ بوفاة أخيه وهو في سفر فنزل وصلى ثم قرأ ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾

تم تفسير جزء الأحقاف في (١/٤/١٤٤٤هـ) سائلاً المولى جل وعلا القبول وأن ينفع به .